مكتبة البنين
قسم الدوريات

السنة السابعة - العدد السابع
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

نص جديد حول تأسيس
مدينة سلجماسه المبكر

د . صباح الشيخلي

نص جديد حول تأسيس مدينة سلجماسه المبكر

ملاحظات أولية حول الموضوع ومصادره :

لا يزال تأريخ المغرب في عصور الازدهار الاسلامي يشكو مر الشكاية من ضياع كثير مما دونه المغاربة عن تأريخ بلادهم . فنحن غالباً ما نسمح عن كتب ولا نراها ، ولئن كانت الكتب التي بين أيدينا قد نقلت عنها أو استخلص فوائدها ، فما ذلك بمغني عما بها من معلومات . وسيبقى تأريخ المغرب العربي الوسيط غير كامل بدون اضافة المواد القيمة التي احتوتها الكتب المفقودة .

ان الفراغ في تأريخ المدن المغربية ، الذي خلقه عدم وصول المؤلفات الخاصة بها ككتب ابن الوراق عن مدينة سجلماسة ونكور والبصرة وكتاب تأريخ سبتة للقاضي عياض وغيرها ، جعل دراسة المدن المغربية في عصور الأزدهار الإسلامي غير دقيقة وغير كاملة . وإذا ما عرفنا أن دراسة تأسيس المدن العربية الاسلامية ومراحل تطورها العمراني ، ونشاط حياتها في شتى المجالات يساعدنا على رسم صورة واضحة لتأريخنا العربي الإسلامي الوسيط [١] ، وادركنا مدى الخسران الذي نحن فيه لضياع الكتب الخاصة بمدن المغرب .

وللتدليل على ماذهبنا إليه ، اخترنا موضوع تأسيس مدينة سجلماسة [٢] التي احتلت مركزاً تجارياً عالمياً في العصر الوسيط ، فموقعها الحساس في مفترق مسالك تجارية شهيرة في تأريخ التجارة المغربية اكسبها القوة المالية والسياسية والعسكرية [٣] .

ان النصوص العربية التي بين أيدينا عن سجلماسة يمكن أننصفها بالآتي :

١ - ان كثيراً من جغرافيينا ومؤرخينا لم يسجلوا شيئاً عن تأسيس سجلماسة وظروف بنائها . فالجغرافيون والرحالة أمثال الاصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسي ، واليعقوبي ، والادريسي ، وياقوت ، والقزويني ، وابن سعيد ، وابي الفدا ، وشيخ الربوة الدمشقي ، وابن بطوطة وغيرهم ، تنحصر معلوماتهم عن سجلماسة بذكر موقع المدينة وشيء عن جغرافيتها كوجود عدة انهار فيها ، وارتباطها بمسالك تجارة الذهب وما جلبته هذه التجارة من ثورة وشهرة لسجلماسة في العصر الوسيط ، مع ذكر نشاطها الزراعي وحاصلاتها

ومنتجاتها (٤) . أما مؤرخو التأريخ المغربي الوسيط فإن الكثير من نصوصهم عن سجلماسة تتعلق بتأريخها السياسي ونشاطها العسكري وبعض الاشارات إلى ملامح حياة هذه المدينة (٥) .

٢ - النصوص الخاصة بتأسيس سجلماسة في روايات بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب ، وهي قليلة تعد على أصابع اليد منها روايات البكرى ، وصاحب الاستبصار وصاحب مفاخر البربر وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والقلقشندي والحميري الحسن بن حمد الوزان . والصفة العامة لهذه الروايات أنها لا تعطي رأياً قاطعاً في موضوع تأسيس مدينة سجلماسة . ولذا فإن أى اضافة جديدة للموضوع تقرب الوصول إلى معرفة حقيقة تأسيس هذه المدينة .

أولا : سجلماسة في مخطوط جديد :

في الخيزانة الملكية في الرباط وتحت رقم ٢٦٣٤ مخطوط صغير بعنوان « التعريف بمدينة سجلماسة » ، وتأريخ كتابته يعود إلى عام ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م . ويتكون المخطوط م خمس صفحات مكتوبة بخط مغربي غير واضح تصعب قراءته . والمخطوط منسوخ بعد وفاة المؤلف ، ولكن الناسخ لم يذكر اسمه ولا سنة النسخ .

١ - مؤلف المخطوط :

هو الشيخ أبوالعباس أحمد بن عبد الله أبي مَحَلِّي السجلماني . ولد سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م في مدينة سجلمانة . تقول أسرته أنها تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب (رض) ، وكنية جدهم الأعلى أبو محلي ، ولا يعرف سبب هذه التسمية ، واشتهرت هذه الأسرة بخطة القضاء في مدينة سجلماسة .

نشأ أبو محلي في كنف والده الذي بذل مجهوداً في تعليمه . وانتقل وهو في مقتبل العمر إلى فاس لطلب العلم ، حيث كان ذلك سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م . وأقام أبو محلي في فاس سنين عديدة قبل أن يخرج منها عالماً متبحراً في اللغة والمسائل الدينية .

سلك أبو المحلي طريق التصوف ، وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد بن مبارك الزعرى في تستاوت (وهذا الرجل من قبيلة زعر من عرب السوس بالمغرب الاقصى) لمدة ١٨ سنة . وبنصيحة الأخير عاد أبو محلي إلى سجلماسة لكنه ظل على صلة دائمة باستاذه . ومن اشياخه الذين ذكرهم ، الشيخ أبو العباس المنحور والشيخ

أبوالعباس السوداني ، والشيخ سالم السنهورى وغيرهم . وعندما كان أبو محلى عند شيخه الزعرى كانت تعتريه أحوال فيصبح قائلا أنا سلطان (أنا سلطان) فيقول له الشيخ « انك لن تخرق الإرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

أقام أبو محلي في الزاوية الدلائية مدة من الزمن ، اتجه بعدها جنوباً إلى الصحراء ، وادعى انه الهدى المنتظر وانه بصدد الجهاد فاتبعه الكثير من عامة الناس وبدأ يكاتب رؤوساء القبائل والنواحي بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويدعوهم إلى التمسك بالدين والسنة . وهكذا اختلطت المهدوية بالتصوف في ذهن أبي محلي .

قاد أبو محلي العامة المجتمعين حوله إلى سجلماسة فملكها سنة ١٠١٩ / ١٦١٠ ثم استولى على بلاد درعة . وأخيراً قصد مراكش فافتتحها عنوة وطرد سلطانها زيدان بن منصور الذهبي ، واعلى نفسه حاكماً وضرب السكة باسمه . أما السلطان السعدي زيدان فما كان أمامه الا الفرار إلى ثغر اسفي ، ثم التوجه إلى زاوة الشيخ أبي زكريا الحاجي بجبل دون (الاطلسي الكبير) يطلب المساعدة في القضاء على أبي محلي . زحف أبو بكر عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٤ م في جماعة كبيرة من اتباعه نحو مراكش ، وعند جبل جيليز المطل على مراكش التقى بأبي محلي وجماعته . ووقعت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن مقتل أبي محلي وانهزام اتباعه . وانتهى بذلك حكم أبي محلي لمراكش وكذلك لسجلمانة ودرعة بعد أن دام حوالي ثلاث سنوات (٦) .

نص جديد حول تأسيس مدينة سلجماسه المبكر

ملاحظات أولية حول الموضوع ومصادره :

لا يزال تأريخ المغرب في عصور الازدهار الاسلامي يشكو مر الشكاية من ضياع كثير مما دونه المغاربة عن تأريخ بلادهم . فنحن غالباً ما نسمع عن كتب ولا نراها ، ولئن كانت الكتب التي بين أيدينا قد نقلت عنها أو استخلص فوائدها ، فما ذلك بمغني عما بها من معلومات . وسيبقى تأريخ المغرب العربي الوسيط غير كامل بدون اضافة المواد القيمة التي احتوتها الكتب المفقودة .

ان الفراغ في تأريخ المدن المغربية ، الذي خلقه عدم وصول المؤلفات الخاصة بها ككتب ابن الوراق عن مدينة سجلماسة ونكور والبصرة وكتاب تأريخ سبتة للقاضي عياض وغيرها ، جعل دراسة المدن المغربية في عصور الأزدهار الإسلامي غير دقيقة وغير كاملة . وإذا ما عرفنا أن دراسة تأسيس المدن العربية الاسلامية ومراحل تطورها العمراني ، ونشاط حياتها في شتى المجالات يساعدنا على رسم صورة واضحة لتأريخنا العربي الإسلامي الوسيط [١] ، وادركنا مدى الخسران الذي نحن فيه لضياع الكتب الخاصة بمدن المغرب .

وللتدليل على ماذهبنا إليه ، اخترنا موضوع تأسيس مدينة سجلماسة [٢] التي احتلت مركزاً تجارياً عالمياً في العصر الوسيط ، فموقعها الحساس في مفترق مسالك تجارية شهيرة في تأريخ التجارة المغربية اكسبها القوة المالية والسياسية والعسكرية [٣] .

ان النصوص العربية التي بين أيدينا عن سجلماسة يمكن أننصفها بالآتي :

١ – ان كثيراً من جغرافيينا ومؤرخينا لم يسجلوا شيئاً عن تأسيس سجلماسة وظروف بنائها . فالجغرافيون والرحالة أمثال الاصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسي ، واليعقوبي ، والادريسي ، وياقوت ، والقزويني ، وابن سعيد ، وابي الفدا ، وشيخ الربوة الدمشقي ، وابن بطوطة وغيرهم ، تنحصر معلوماتهم عن سجلماسة بذكر موقع المدينة وشيء عن جغرافيتها كوجود عدة انهار فيها ، وارتباطها بمسالك تجارة الذهب وما جلبته هذه التجارة من ثورة وشهرة لسجلماسة في العصر الوسيط ، مع ذكر نشاطها الزراعي وحاصلاتها ومنتجاتها (٤) . أما مؤرخو التأريخ المغربي الوسيط فإن الكثير من نصوصهم عن سجلماسة تتعلق بتأريخها السياسي ونشاطها العسكري وبعض الاشارات إلى ملامح حياة هذه المدينة [٥] .

٢ – النصوص الخاصة بتأسيس سجلماسة في روايات بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب ، وهي قليلة تعد على أصابع اليد منها روايات البكرى ، وصاحب الاستبصار وصاحب مفاخر البربر وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والقلقشندي والحميري الحسن بن حمد الوزان . والصفة العامة لهذه الروايات أنها لا تعطي رأياً قاطعاً في موضوع تأسيس مدينة سجلماسة . ولذا فإن أى اضافة جديدة للموضوع تقرب الوصول إلى معرفة حقيقة تأسيس هذه المدينة .

أولا : سجلماسة في مخطوط جديد :

في الخيزانة الملكية في الرباط وتحت رقم ٢٦٣٤ مخطوط صغير بعنوان « التعريف بمدينة سجلماسة » ، وتأريخ كتابته يعود إلى عام ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م . ويتكون المخطوط م خمس صفحات مكتوبة بخط مغربي غير واضح تصعب قراءته . والمخطوط منسوخ بعد وفاة المؤلف ، ولكن الناسخ لم يذكر اسمه ولا سنة النسخ .

١ - مؤلف المخطوط :

هو الشيخ أبوالعباس أحمد بن عبد الله أبي مَحَلِّي السجلماني . ولد سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م في مدينة سجلمانة . تقول أسرته أنها تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب (رض) ، وكنية جدهم الأعلى أبو محلي ، ولا يعرف سبب هذه التسمية ، واشتهرت هذه الأسرة بخطة القضاء في مدينة سجلماسة .

نشأ أبو محلي في كنف والده الذي بذل مجهوداً في تعليمه . وانتقل وهو في مقتبل العمر إلى فاس لطلب العلم ، حيث كان ذلك سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م . وأقام أبو محلي في فاس سنين عديدة قبل أن يخرج منها عالماً متبحراً في اللغة والمسائل الدينية .

سلك أبو المحلي طريق التصوف ، وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد بن مبارك الزعرى في تستاوت (وهذا الرجل من قبيلة زعر من عرب السوس بالمغرب الاقصى) لمدة ١٨ سنة . وبنصيحة الأخير عاد أبو محلي إلى سجلماسة لكنه ظل على صلة دائمة باستاذه . ومن اشياخه الذين ذكرهم ، الشيخ أبو العباس المنحور والشيخ أبوالعباس السوداني ، والشيخ سالم السنهورى وغيرهم . وعندما كان أبو محلى عند شيخه الزعرى كانت تعتريه أحوال فيصبح قائلا أنا سلطان (أنا سلطان) فيقول له الشيخ « انك لن تخرق الإرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

أقام أبو محلي في الزاوية الدلائية مدة من الزمن ، اتجه بعدها جنوباً إلى الصحراء ، وادعى انه الهدى المنتظر وانه بصدد الجهاد فاتبعه الكثير من عامة الناس وبدأ يكاتب رؤوساء القبائل والنواحي بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويدعوهم إلى التمسك بالدين والسنة . وهكذا اختلطت المهدوية بالتصوف في ذهن أبي محلي .

قاد أبـو محـلي العامة المجتمعين حوله إلى سجلماسة فملكها سنة ١٠١٩ / ١٦١٠ ثم استـولى على بلاد درعـة . وأخـيراً قصد مراكش فافتتحها عنـوة وطرد سلطانها زيدان بن منصور الذهبي ، واعلى نفسه حاكماً وضرب السـكة باسمه . أما السـلطان السعدي زيدان فما كان أمامه الا الفـرار إلى ثغر اسفي ، ثم التوجه إلى زاوة الشيخ أبي زكريا الحاجي بجبل دون (الاطلسي الـكبير) يطلب المساعـدة في القضاء على أبي محلي . زحف أبو بـكر عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٤ م في جماعـة كبيرة من اتباعه نحو مراكش ، وعنـد جبـل جيليز المطل على مراكش التقى بأبي محلي وجماعتـه . ووقعت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن مقتل أبي محلي وانهزام اتباعـه . وانتهى بذلك حـكم أبي محلي لمراكش وكذلك لسـجلمانة ودرعة بعـد أن دام حوالي ثلاث سنوات (٦) .

ألف أبو محلي السجلماني عدة كتب تدور حول البدع والمنكرات متحاملا على المبتدعين والمنحرفين عن الدين . وأهم مؤلفاته :

١ - **أصليت الخريت في قطع بعلوم العفريت النفريت** ، هذا الكتاب هو في الوقت نفسـه فهـرس ورحلة ، الفه أبو محلي عام ١٠١٦ / ١٦٠٧ تحدث فيه عن شيوخه الصوفية وأساتذته العلماء من المغاربة والمشارقة ، وعن حياته الخاصة ورحلته إلى الحجاز وانقطاعه إلى التصوف وما شاهده من العادات والخوارق .

٢ - **المنجنيق لرمي البدعي الزنديق** ، وهو كتاب خصصه أبو محلي لانتقاد الطائفة اليوسفية أو العكازية ، وشيخ فجيج عبد القادر السماحي الذي اعتبره شيخ الدجالين المتصوفة ذاكراً عيوبه[٨] .

٣ - **مهراس رؤوس الجهلة ومدارس نفوس السفلة المنخدعة** ، خصص أو محلي هذا الكتاب في الرد على منتقديه وتسفيه آرائهم ، وتأويل ما صدر عنه من أقوال ووعود لم تتحقق [٩] .

٤ - **السيف البـارق في السهم الراشق** ، وهـو رسـالة مطولة اتبعهـا بكتـابـه (المنجنيق) ضمنهـا كثـيراً من الشعـر والنثـر في هجـوم الشيخ السماحي والتشنيع باتباعه . كما احتوى على أجوبة لاسئلة عدد من علماء شمال أفريقيا عن خرافات شيخ فجيج [١٠] .

٥ - **سم الساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة** . هذا الكتاب عبارة عنرد على

الذين انتقدوا كتابي أبي محلي (المنجنيق) و (السيف) [١١] .

٦ - **سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق** ، ألف أبو محلي هذا الكتاب في النقد ومناقشة الاعتراضات والاستشكالات الصوفية الواردة عليه من بعض أصدقائه [١٢] .

٧ - **القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من السقيم** . تكلم فيه عن العلم والعمل والخلافة [١٣] .

هذا فضلا عن كتب أخرى تعد في عداد المفقودات مثل الوضاح والهودج وغيرها .

٢ - محتويات المخطوط ومصادره :

١ - التعريف بالمخطوط :

يبدأ الناسخ المخطوط ، وبعد الحمد لله والصلاة على نبيه وصحبه ، بالتعريف بالمخطوط ومؤلفه ، فيقول :

« هذا تقييد ما وقفنا عليه في تعريف مدبنة سجلماسة من تأليف الشيخ الفقيه أحمد أبي محلي لسجلماني القايم بها سنة ١٠١٩ وانه لمالك باحوازها إلى أن وصل مراكش ، فكانت مدة ملكه ثلاث سنين سوى ربع سنة ورموزٍ مدة قيامه إلى أن توفى رمزاً بقوله قام طيشا (١٠١٩) ومات كيشا (١٠٢٢) »[١٤] .

والملاحظ أن الناسخ يكمل التعريف بأبي محلي وحركته العسكرية ضد مراكش في نهاية المخطوط . ففي الخاتمة تنبيه ، نقله الناسخ من كتاب « حسن المحاضرات » للشيخ العالم سيدى الحسنبن مسعود اليوسي المتوفي سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ (١٥) ، جاء فيه :

« قال ان السلطان أحمد بن عبد الله أبي محلي هذا كان من أعيان أصحاب سيدى أحمد بن مبارك الزعرى التستاوي حتى حصل له شيء من الذوه (؟) والاسرار فتحرك عليه الحال يوماً بحضور الشيخ والفقراء وكشف له عن أسرار وصار يقول أنا سلطان أنا سلطان فجعل الشيخ يقول له ثلاث سنين غير ربيع فكان كذلك ملكه فقام بالصحراء وسجلماسة وقدم لمدينة مراكش ومعه نحو عشرة آلاف ما بين خيل ورماة فلما بلغ مدينة مراكش هرب منه أحمد الذهبي السعدى وقصد ناحية السوس وقام أبي محلي بمراكشة ثلاث سنين غير

ربع ورجع إليه مولاى أحمد المذكور وحاربه : وبها توفي رحمه الله فكانت مدة ولايته ما أشار إليه شيخه سيدى أحمد مبارك التستاوى كما ذكرنا اعلاه » (١٦) .

على أن ما ذكره ناسخ المخطوط عن غزو أبي محلي لمراكش ونهايته فيها معروف ومؤكد ، اشارت إليه المصادر المختلفة . ونجد في مقدمة مخطوط (التعريف) شعراً من نظم أبى سجله الناسخ في مدح مدينة سجلماسة ،وقال ان أسمها الثاني هو تافـلالت ، وأنهـا قاعدة للملك والرياسة ، ومنازل للأخبار والشرفاء ، كذلك ومأوى للأولياء والعلماء والأبطال والكرماء (١٧) .

٢ - أصل المدينة وسكانها :

يتـكلم أبو محلي عن الأصول الأولى لمدينة سجلمانة وسكانها نقلا عن رواية أبن الخطيب في كتابه « الاعلام » ذاكراً أن سجلماسة في الأصل مرعى للغنم والابل ، وهي خاليـة من البنـاء فيهـا الميـاه والأشجار فزحف إليها المنتجعون من القبائل واستخدموها مرعى لهم . ثم يعرض الرواية التي تربط بين الأصول السكانية القديمة لسجلمانة وبين الاسكندر ذى القرنين وعسكره (١٨) .

٣ - تأسيس مدينة سجلماسة :

يسجل أبو محلي رأيه في تأسيس مدينة سجلمانة وظروف التأسيس وسنناقش ذلك بالتفصيل لاحقاً .

٤ - ذكر بعض حكام: مدينة سجلماسة :

في مخطوط « التعريف » ذكر لبعض حكام أول كيان سياسي أسس في سجلماسة في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد . وهذا الكيان عبارة عن امارة مكناسية صفرية (١٩) والحكام الذين جاء ذكرهم عند أبي محلي هم :

(أ) عيسى بن يزيد :

أول حاكم في سجلمـاسـة ، وله تعريف بصفاته وأحواله ووصوله إلى منطقة سجلمانة ، واشارة إلى الأعمال التي انجزها خلال فترة حكمه ، كما سنفصل ذلك في الصفحات التالية :

(ب) أبو الخطيب الصقع الزناني :

ان الحاكم الذى خلف عيسى في حكم سجلماسة عند أبي محلي هو أبو الخطيب الصقع الزناني ، إلا أنه لم يذكر أكثر من ذلك عنه [٢٠] .

والملاحظ أن أبا الخطيب ينفرد في ذكر هذا الحاكم دون غيره من الكتاب العرب ، ويسميه بالخطاب الصغري الزناني ، خلف بن يزيد في حكم سجلمانة . وكان قد تولى أمره بعد عزل عيسى وقتله ، ويصفه بأنه داهية حسن التدبير حكم لمدة ٢٤ سنة ، ومات حتف أنفه سنة ١٩١ هـ [٢١] .

ويرد اسم ابن الخطاب عند البكري أيضاً في رواية مشوشة ، فهو الشخص الذى شجع الجماعة الصغرية في سجلمانة على خلع حاكمهم عيسى بن يزيد ، لكنه لم يستلم السلطة بل تولاها بعد عيسى أبو القاسم سمكو ، مندون أن يقدم تفسيراً لذلك أو توضيحاً لعلاقة أبي الخطاب بالصخرية في سجلمانة [٢٢] .

ان عدم تحديد رواية البكرى لعلاقة أبي الخطاب الصغرية في سجلمانة جعل ظن بعض الباحثين المحدثين يذهب خطأ ، أنه نفس الشخص المعروف بأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافرى الأباضي الذي استولى على طرابلس القيروان وحارب جيوش العباسيين [٢٣] . غير أن مجرد النظر إلى رواية ابن الخطيب ، المشار إليها اعلاه ، يجعلنا واثقين أنه شخص آخر ، وهو زناتي صغرى وليس أباضي . وقد حاول صاحب كتاب « مفاخر البربر » أن يزيل هذا الالتباس بذكره أن بني الخطاب قبائل من الغرب نجدهم ي صنهاجة وفي هكسورة وفي مكناسة وغيرها [٢٤] .أما بقية الروايات العربية التي كتبت عن عيسى وخلفائه من حكام سجلماسة الأوائل ، فلم تذكر اسم أبي الخطاب اطلاقاً [٢٥] .

(جـ) أبوالقاسم الملقب بمدرار :

وهو الحاكم الثالث لسجلماسة عند أبي محلي « والذي بنى سور سجلماسة الدائر على بساتينها وزروعها ومراعيها فجعل عليها سوراً وانفق عليه مالا عظيماً وجعل لها ثمانية أبواب بابين لكل ربع من أرباعها وجعل على كل باب من يحرسها ولا يدخل أحد ولا يخرج الا بعمله ومشورته » [٢٦] .

هناك عدة آراء حول أبي القاسم ، فقد اختلفت الجغرافيون والمؤرخون العرب في ضبط اسمه فمنهم من قال أنه القاسم سمقو (أو سمكو) بن وأسول بن مصلات

بن أبي يزول المكناسي [٢٧] ، ومنهم من سماه أبا القاسم سمعون (أو سمفون) بن يزلان أو (مدلان) بن مزول (أو يزلان) [٢٨] ، ولكن الجميع متفقون على انه مكناسي صفري .

أما مدرار اللقب الذى اعطاه أبو محلي أبي القاسم ، فقد اختلف الكتاب العرب في كونه لقبا أو أسما . فالبكرى وصاحب مفاخر البربر وابن الخطيب يرون أنه لقبٌ على المكناسيين في سجلمانة [٢٩] . ويحكي البكرى وابن الخطيب حكاية عن أصل مدرار هذا بوصفه حداداً يعيش في ربضية الأندلس بقرطبة ، وان جده كان قد دخل الأندلس من طارق بن زياد ، وقد عاد مدارار إلى المغرب ونزل في سجلماسة . وهنا يختلف البكري وابن الخطيب في زمن عودته ، فالأول يرى انها كانت قبل تأسيس مدينة سجلماسة ، والثاني يقول إنه عاد أيام حاكمها أبي الخطاب وانه تقرب له حتى أصبح حاكماً لسجلماسة بعد وفاته [٣٠] .

ولصاحب « الاستبصار » رأى آخر في مدرار ، حيث جعل منه أسماً للحاكم الأول في سجلماسة [٣١] . وجعله القلقشندى أسماً لرئيس الجماعة الصفرية المتنفذة قبل توليه عيسى بن يزيد أمرهم [٣٢] .

أما ابن عذارى وابن خلدون فقد تجاهلا رواية مدرار ، ولم يظهر عندهم الا اسم لعدد من حكام سجلماسة واولهم مدرار بن اليسع الملقب بالمنتصر[٣٣] . فاختلاف الروايات العربية في مدرار يعود الى وجود اكثر من حاكم في سجلماسة يحمل اسم او لقب مدرار .

وكما اختلفت الروايات في تسمية ابي القاسم بمدرار فقد اختلفت في ترتيبه في قائمة حكام سجلماسة المكناسيين الصفريين . فأغلب الروايات تقول انه الحاكم الثاني لاول حكومة في سجلماسة تولى أمرها بعد عزل عيسى بن يزيد وقتله ، وانه ظل يحكمها الى ان مات سنة ١٦٧ هـ او ١٦٨ هـ[٣٤] . اما ابن الخطيب وأبو محلي من بعده فقد جعلاه الحاكم الثالث الذي تولى الحكم بعد ابي الخطاب ، وكانت وفاته عند ابن الخطيب في آخر ذي القعدة من سنة ١٩٩ هـ[٣٥] . وفي هذا اختلاف واضح عن روايات الجغرافيين والمؤرخين العرب الآخرين ، ومرجع ذلك الى اهمال الآخرين لابي الخطاب حاكماً ثانياً في سجلماسة .

تبنى أبو محلي رواية ابن الخطيب عن ابي القاسم ، ولكنه انقص منها احيانا وزد في خرى ، من دون ان يصرح بذلك . فقد ردد ما قاله ابن الخطيب عن بناء هذا الحاكم لسور سجلماسة ، وزاد في التفاصيل الأخرى عن أبواب هذا السور . لكنه

اغفل ذكر الظروف التي مكنته من تولي السلطة في سجلماسة ، في حين فصل فيها ابن الخطيب بقوله :

« ابو القاسم سمعون بن يزلان الزناتي هذا هو الملقب بمدرار ، ويذكر انه كان حداداً من حالية الربض بقرطبة ايام الحكم ، نزل سجلماسة ، وتقرب لابي الخطاب الصغرى بسلاح من عمله فاستحسنه وضمه إلى نفسه ، ولم يزل أمره يعظم عنده إلى أن صار القائم بأمره ، فلما توفي أبو الخطاب ولي مكانه »[٣٦] . على ان هـذه التفاصيل عن مدرار ينفرد بها ابن الخطيب عن غيره من الكتاب .

(د) المنتصر بالله :

ينتقل أبو محلي إلى ذكر حاكم آخر لسجلماسة لا يذكر أنه خلف لسلفة ، وهو المنتصر بالله ، ويقول عنه إنه كان قد « استكثر فيها من الخيل نحوا من عشرة آلاف تركب كلها لركوبه وكثرت فيها التمر والزرع والفاكهة وكانت الركبان تسافر إليها من كل ناحية وتحمل منها الزاد ويبقى سعرها كما هو . وملك نواحيها طولا وعرضاً من سوس الاقصى الى تلمسان ونواحيها » . ثم يضيف بأنه في زمن هذا الحاكم بعث الملك المعتـز بالله بالقـيروان (كذا والمقصود المعز لدين الله الفاطمي) . سنة ٣٤٠ هـ « خليفته جوهر الرومي بجيش كبير نحو عشرين ألفاً ما بين خيال ورجال فلما بلغ مدينة سجلماسة لم يجد مدخلا لها ونزل بجيشه خارج السور البراني المدار عليها فخرج إليه الملك المنتصر بالله فحاربه خارج السور المدار بها ومعه عشر آلاف من الخيل دون الرماة .. وبقي معه نحو شهر ورجع منكسراً ولم يدخلها » . ويصف أبو محلي هذا الحاكم بأنه كان « أمام عدل الى ان توفي فيها » . وكانت مدة حكمه ٥٠ عاماً وتولى من بعده أمر سجلماسة » ابو القاسم الواسولي وبقي ما شاء الله ، وتولى أمرها من بعده مغراوة »[٣٧] .

ان مقارنة ما جاءبه ابو محلي عن المنتصر بالله مع ما جاء من روايات في الكتب العربية يظهر لنا ان الامر فيه الكثير من اللبس والخطأ .

أ – ان الذي تولى امـر سجلمـاسة بعد ابي القاسم عدد من الحكام الصغريين المكناسيين قبل ان يصل جيش جوهر القائد الفاطمي إلى سجلمانة وقبل أن ينتهي حكم المكناسيين على يد مغراوة الزناتيين . وهؤلاء الحكام كما جاء في معظم المصادر هم على التوالي [٣٨] :

١ – الياس بن أبي القاسم المدعو بالوزير (ت ٢٠٠ هـ) .

٢ – اليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور (ت ٢٠٨ هـ) .
٣ – مدرار الملقب بـ « المنتصر » وفي زمنه حدث صراع على سلطة سجلماسة بين ولديه المسمى كل منهما ميمون .
٤ – ميمون ابن تقية المعروف بالأمير (ت ٢٦٣ هـ) .
٥ – محمد بن الأمير ميمون (ت ٢٧٠ هـ) .
٦ – اليسع بن المنتصر بن اليسع بن مدرار (ت ٢٩٧ هـ) . وفي زمنه دخل جيش عبد الله الشيعي سجلماسة وقتلوا هذا الحاكم وعينوا عليها واليا هو ابراهيم ابن غالب المزاتي من رجالات قبيلة كتامة ، وثار عليه أهل سجلماسة وقتلوه وبايعوا الفتح بن الأمير مدرار .
٧ – الفتح بن الأمير مدرار الملقب (بواسول) ت ٣٠٠ هـ .
٨ – أبو العباس أحمد بن الأمير ميمون . وفي عهده بعث عبد الله الشيعي جيشاً إلى سجلماسة ، فدخلها عنوة وقتل الحاكم سنة ٣٠٩ هـ .
٩ – المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار (ت ٣٢١ هـ) .
١٠ – محمد بن المعتز (ت ٣٣١ هـ) .
١١ – سمعون بن المعتز الملقب بالمنتصر ، الذى تغلب عليه عمه محمد بن الفتح وأخذ الحكم منه .
١٢ – محمد بن الفتح بن الأمير ميمون الملقب بالشاكر لله ، وهذا الشخص معروف عنه أنه أخذ بمذاهب أهل السنة بعد أن رفض الخارجية . وكان ـ كما تصفه المصادر ـ في غاية العدل وحسن السيرة ، وفي أيامه زحف جوهر بجيشه وحاصر سجلماسة وملكها وعين واليا عليها .
١٣ – ويذكر ابن خلدون ، انه لما ضعف أمر الفاطميين في المغرب ، ثار في سجلماسة أحد أولاد الشاكر لله ، وحكم سجلماسة وتلقب بـ « المنتصر بالله » ، ثم وثب عليه أخوه محمد سنة ٣٥٢ هـ فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب بـ « المعتز بالله » وأقام على ذلك مدة « وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال ، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب » إلى أن زحف خزرون بن فلفول من حكام مفراوة إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وقتل المعتز بالله واستولى على المدينة ، فبدأ حكم زناتة المفراويين فيها (٣٩) .

ب – في رواية أبي محلي عن المنتصر بالله ، المذكورة انفا ، خلط وخطأ واضح ،

ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي :

١ – أن المعلومات الواردة عن المنتصر بالله يمكن أرجاعها إلى ثلاثة حكام مكناسيين من سجلماسة ، وقد خلط أبو محلي بينهم ، وهم : اليسع بن المنتصر بن مدرار (ت ٢٩٧ هـ) ، ومحمد بن الفتح بت الأمير ميمون الملقب بالشاكر لله ، والمنتصر بالله ابن الشاكر لله . ومصدر هذا الخلط والخطأ مئات م وجود كلمة « المنتصر » في اسم أثنين من الحكام المذكورين . هذا فضلا عن وجود علاقة بين هؤلاء الحكام الثلاث والفاطميين . فكما ذكرنا سابقاً ، فعهد اليسع بن المنتصر قد شهد وصول جيش عبد ا الشيعي حاكم القيروان إلى سجلماسة وقتله لحاكمها . أما في أيام الشاكر لله فقد زحف جوهر قائد الحاكم الفاطمي في القيروان بجيشه نحو سجلماسة ودخل المدينة وانهى حكم الشاكر لله . وأماالثالث من هؤلاء الملقب بالمنتصر بالله ، فقد تمكن من استغلال ضعف الفاطميين فثار عليهم وعاد ملك المكناسيين إلى سجلماسة . أن هذه الأحداث الثلاثة المتعلقة بالفاطميين لابد أن تكون مسؤولة عن المادة المشوشة المضطربة التي اعطاها أبو محلي عن المنتصر بالله . وكما يلاحظ فإن صفات العدل وحسن السيرة والقوة التي اعطاها أبو محلي إلى المنتصر بالله ، هي سمات وصف بها الشاكر لله في روايات المصادر الأخرى (٤١) ، وهذا ما يؤكد الخلط الذي وقع فيه كاتبنا .

٢ – أن التاريخ الذي اعطاه أبو محلي لوصول جوهر إلى سجلماسة وهو ٣٤٠ هـ يختلف عما سجله غيره من المؤرخين الآخرين وهو سنة ٣٤٧ هـ أو ٣٤٩ هـ (٤٢) وفضلا عن ذلك فقد ذكر أبو محلي أن المكناسيين بقوا في حكم سجلماسة بعد حملة جوهر أكثر من ٥٠ عاماً حتى جاء المغراويون ، وفي هذا خطا واضح ، لأن المغراويين كما هو معروف ، دخلوا سجلمانة عام ٣٦٦ هـ . وبذلك تكون تواريخ أبي محلي غير مضبوطة في هذا المجال .

٣ – وقع أبو محلي في خطأ آخر ، إذ أن جوهر لم يدخل سجلملسة ، غير أن المعروف فيالمصادر العربية الأخرى ، أن هذا القائد قد دخلها وانهى حكم الشاكر فيها .

٤ – ذكر أبو محلي أن اخر حاكم صفرى لسجلماسة هو « أبو القاسم الواسولي » ، غير اننا لم نعثر في الروايات العربية على ما يؤيد ماذهب إليه . فالمعروف ان آخر حاكم لهذه المدينة هو المعتز بالله من أولاد الشاكر لله ، وقد شهد عهده نهاية حكم المكناسيين وبداية حكم مغراوة الزناتية لسجلماسة (٤٣) .

يتوقف أبو محلي عن ذكر حكام سجلماسة إلى دخول المغراويين اليها ، ويختم الموضوع بقوله : « وتولى أمر سجلماسة بعد مغراوة خليفة بعد خليفة ثم انقرضوا وخربت المدينة (٤٤) .

٥ - التطور العمراني لمدينة سجلماسة :

لاحق أبو محلي التطور العمراني الذي شهدته مدينة سجلماسة ، وذلك بنفس الطريقة التي سارت عليها المصادر العربية الأخرى . فالمياه والأشجار المتوفرة في منطة سجلماسة جذبت قبائل عدة لاستخدام مراعيها الوفيرة . ومع ظهور أول كيان سياسي في منطقة سجلماسة أقامته قبيلة مكناسية الصفرية نشطت مرافق الحياة في المنطقة وأسست مدينة متطورة نشطة .

يربط أبو محلي أول توسع عمراني في سجلماسة بثالث حاكم من حكامها وهو أبو القاسم ، مسجلا أهم أعماله العمرانية وهي :

١ - **بناء سور سجلماسة** « الدائر على بساتينها وزروعها ومراعيها فجعل عليها سوراً حصينا أنفق عليه مالا عظيماء ، وتقدر مسافة هذا السور بقوله ؟ » أن الأسوار المدارة بها كدورة الخاتم والدائر كدور الرحا بقصبتها فيه مسيرة يوم كامل للدائر بها » (٤٥) .

والجدير بالذكر أن أبا محلي كان قد أشار وهو يتكلم عن عيسى بن يزيد وتأسيسه لمدينة سجلماسة بأنه شيدها مدينة محصنة ، وذلك بتسويرها . ومن هذا يفهم أن ما قام به أبو القاسم هو تجديد لسور سجلماسة وليس تشييداً جديدا . وهذا ما قاله ابن الخطيب بصريح العبارة .

تؤكد رواية ابن الخطيب ما ذهب إليه أبو محلي ، وذلك بأن سور سجلماسة قد شيد مع تأسيسها سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، وعلى يد عيسى بن يزيد ، وأعيد بناؤه في زمن أبي القاسم سمعون ـ ثالث حكامها . لكن الرواية تذهب إلى القول أن ابن هذا الحاكم المسمى بـ « أبي المنتصر اليسع بن أبي القاسم » ، خامس حكام سجلماسة كان قد « هدم ما كان أبوه بناه من سور المدينة ، وبناه بناء حسناً أحسن من الأول ، وأنفق عليه أموالا جليلة » (٤٦) . وبذلك يكون سور سجلماسة قد أعيد بناؤه مرتين بعد تأسيسه الأول زمن عيسى حسب رواية ابن الخطيب ، وهذا ما لم يذكره أبو محلي .

أما بقية الروايات العربية ، فيستدل بما جاء فيها أن مدينة سجلماسة

انشأت بدون سور [٤٧] ، وأن اليسع بن أبي لقاسم (الملقب بأبي منصور أو المنتصر) هو الذى سورها « من ماله ولم يشاركه في الانفاق عليها أحد » [٤٨] وتصف هذه الروايات السور الذى بناه هذا الحاكم بأنه مشيد بالحجارة من أسفله ومرتفع بالطوب من أعلاه [٤٩] .

أمام هذه الروايات نقول أن سور سجلماسة كان قد بني أكثر من مرة واحـدة . وأن البنـاء المتقن الدائم والأخير له قد تم على يد اليسع بن أبي القاسم ، ومن هذا ارتبط بناء السور بهذا الحاكم عند أغلب الكتاب العرب المهتمين بسور سجلماسة .

٢ - الأبـــواب :

جعل أبو القاسم في سور سجلماسة بعد أن أعاد بناءه ثمانية أبواب موزعة على أرباع المدينة لكل أربعة بابين ، حسب رواية أبي محلي [٥٠] ولا يتفق هذا الأمر مع رواية ابن الخطيب التي جعلت السور ١٢ بابا دون الاشارة إلى كيفية توزيعها على أرباع المدينة [٥١] . أما البكري فجاء برواية ثالثة حيث قال : أن أبواب سور سجلماسة كانت ١٢ بابا ، ثمانية منها أبواب من الحديد ، إلا أنه لم يذكر شيئاً عن الأبواب الأربعة الأخرى [٥٢] . ولا ينفرد أبو محلي في جعل عدد أبواب سور سجلماسة ثمانية ، بل وفي إعطاءه تفاصيل عن بعضها ، فمن أبواب سجلماسة التي ذكر موقعها وبعض أوصافها الآتي :

أ - بـــاب الزعفـــران :

وهي « من ناحيـة غروب الشمس مقابل الأقواس التي على الوادى » ، وسبب تسميتها بباب الزعفران « لأن تاجراً جاء من ناحية سوس ومعه عشر قناطير من الزعفران وقد باعها كلها في يوم واحد وهذا اليوم كان يوم الموسم » [٥٣] .

ب - الباب القبلية :

أما الباب القبلية لسور سجلماسة فهي عند أبي محلي « من أعظم أبوابها فهي من ناحية القبلة ـ قبلة طلوع الشمس وهي بين مرج الحمد ودار المعَدة وكثيراً ما كانوا يخرجون منه ملوك المدينة حين خروجهم للصيد » [٥٤] .

ويكتفي أبو محلي بذكر هذين البابين دون الاشارة إلى أسماء أو أوصاف الأبواب المتبقية في سور سجلماسة .

٣ - قصبة المدينة :

ومن المنجـزات العمرانية التي قام بها أبو القاسم فيمدينة سجلماسة ، والتي سجلهـا أبـو محـلي ، بناء في وسط المدينة « حصين يعجز عن وصفه الواصفون من اتقان عجيب » (٥٥) . ويلوح لنا أن هذا البناء المتوسط لمدينة سجلماسة هو مقر حكم المكناسيين ، وربما المقر العسكرى لهم ، ففي نص آخر ورد عنـد أبي محلي يذكر فيه اسم « قصبة الجند » الواقعة على نهر تمس ويقول هي « دار المملكة » (٥٦) .

٤ - المنشآت والمباني العامة :

يستمر صاحب « التعريف بمدينة سجلماسة » في الكلام عن عمران المدينة أيام أبي القاسم ، ويظهر إعجابه بالتطور العمراني الذي شهدته سجلماسة بحيث أصبحت « تموج موج البحر بسكانها من كثرة عماراتها » (٥٧) . الواقع إن اسم الحاكم اليسع أبو القاسم ، اقترن عند بعض الكتاب العرب بانجازات عمرانية عظيمة أيضاً . فعمله لم يقتصر على تشييد السور بل قام باتمام بناء وتشييد سجلماسة (٥٨) ، ومن ثم توزيع القبائل فيها (٥٩) كمابنى جامعاً متقن البناء (٦٠) ، واختط « المصانع والقصور » (٦١) .

أما رواية أبي محلي في الموضوع فأكثر تفصيلا ، فقد وضع قائمة لأسماء المنشآت العمرانية التي احتوتها سجلماسة أيام أبي القاسم وهي :

١ - مساجد الخطبة بلا عدد .
٢ - حمامات .
٣ - قيسويات .
٤ - حوانيت في كل شارع .
٥ - أســواق .
٦ - فندق للتجار .

وهكذا أصبحت مدينة سجلماسة ف يأيام أبي القاسم « مدينة العلم والقراءة وأهل الصناعة والتجارة » (٦١) .

والجدير بالذكر أن أبا محلي كان قد أشار وهو يتكلم عن عيسى بن يزيد وتأسيسه لمدينة سجلماسة بأنه شيدها مدينة محصنة ، وذلك بتسويرها . ومن هذا يفهم أن ما قام به أبو القاسم هو تجديد لسور سجلماسة وليس تشييداً جديدا . وهذا ما قاله ابن الخطيب بصريح العبارة .

تؤكد رواية ابن الخطيب ما ذهب إليه أبو محلي ، وذلك بأن سور سجلماسة قد شيد مع تأسيسها سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، وعلى يد عيسى بن يزيد ، وأعيد بناؤه في زمن أبي القاسم سمعون ـ ثالث حكامها . لكن الرواية تذهب إلى القول أن ابن هذا الحاكم المسمى بـ « أبي المنتصر اليسع بن أبي القاسم » ، خامس حكام سجلماسة كان قد « هدم ما كان أبوه بناه من سور المدينة ، وبناه بناء حسناً أحسن من الأول ، وأنفق عليه أموالا جليلة » (٤٦) . وبذلك يكون سور سجلماسة قد أعيد بناؤه مرتين بعد تأسيسه الأول زمن عيسى حسب رواية ابن الخطيب ، وهذا ما لم يذكره أبو محلي .

أما بقية الروايات العربية ، فيستدل بما جاء فيها أن مدينة سجلماسة انشأت بدون سور (٤٧) ، وأن اليسع بن أبي لقاسم (الملقب بأبي منصور أو المنتصر) هو الذى سورها « من ماله ولم يشاركه في الانفاق عليها أحد » (٤٨) وتصف هذه الروايات السور الذى بناه هذا الحاكم بأنه مشيد بالحجارة من أسفله ومرتفع بالطوب من أعلاه (٤٩) .

أمام هذه الروايات نقول أن سور سجلماسة كان قد بني أكثر من مرة واحدة . وأن البناء المتقن الدائم والأخير له قد تم على يد اليسع بن أبي القاسم ، ومن هذا ارتبط بناء السور بهذا الحاكم عند أغلب الكتاب العرب المهتمين بسور سجلماسة .

٢ - الأبـــواب :

جعل أبو القاسم في سور سجلماسة بعد أن أعاد بناءه ثمانية أبواب موزعة على أرباع المدينة لكل أربعة بابين ، حسب رواية أبي محلي (٥٠) ولا يتفق هذا الأمر مع رواية ابن الخطيب التي جعلت السور ١٢ بابا دون الاشارة إلى كيفية توزيعها على أرباع المدينة (٥١) . أما البكري فجاء برواية ثالثة حيث قال : أن أبواب سور

سجلماسة كانت ١٢ بابا ، ثمانية منها أبواب من الحديد ، إلا أنه لم يذكر شيئاً عن الأبـواب الأربعـة الأخـرى [٥٢] . ولا ينفـرد أبـو محلي في جعل عدد أبواب سور سجلماسة ثمانية ، بل وفي إعطاءه تفاصيل عن بعضها ، فمن أبواب سجلماسة التي ذكر موقعها وبعض أوصافها الآتي :

أ - بـــاب الزعفـــران :

وهي « من ناحية غروب الشمس مقابل الأقواس التي على الوادى » ، وسبب تسميتهـا بباب الزعفران « لأن تاجراً جاء من ناحية سوس ومعه عشر قناطير من الزعفران وقد باعها كلها في يوم واحد وهذا اليوم كان يوم الموسم » [٥٣] .

ب - الباب القبلية :

أما الباب القبلية لسور سجلماسة فهي عند أبي محلي « من أعظم أبوابها فهي من ناحية القبلة ـ قبلة طلوع الشمس وهي بين مرج الحمد ودار المعَدة وكثيراً ما كانوا يخرجون منه ملوك المدينة حين خروجهم للصيد » [٥٤] .

ويكتفي أبو محلي بذكر هذين البابين دون الاشارة إلى أسماء أو أوصاف الأبواب المتبقية في سور سجلماسة .

٣ - قصبة المدينة :

ومن المنجزات العمرانية التي قام بها أبو القاسم فيمدينة سجلماسة ، والتي سجلها أبو محلي ، بناء في وسط المدينة « حصين يعجز عن وصفه الواصفون من اتقان عجيب » [٥٥] . ويلوح لنا أن هذا البناء المتوسط لمدينة سجلماسة هو مقر حكم المكناسيين ، وربما المقر العسكرى لهم ، ففي نص آخر ورد عند أبي محلي يذكر فيه اسم « قصبة الجند » الواقعة على نهر تمس ويقول هي « دار المملكة » [٥٦] .

٤ - المنشآت والمباني العامة :

يستمر صاحب « التعريف بمدينة سجلماسة » في الكلام عن عمران المدينة أيام أبي القـاسم ، ويـظهـر إعجابه بالتطور العمراني الذي شهدته سجلماسة بحيث أصبحت « تمـوج موج البحر بسكانها من كثرة عماراتها » [٥٧] . الواقع إن اسم الحاكم اليسع أبو القاسم ، اقترن عند بعض الكتاب العرب بانجازات عمرانية عظيمة

أيضاً . فعمله لم يقتصر على تشييد السور بل قام باتمام بناء وتشييد سجلماسة [٥٨] ، ومن ثم توزيع القبائل فيها [٥٩] كمابنى جامعاً متقن البناء [٦٠] ، واختط « المصانع والقصور » [٦١] .

أما رواية أبي محلي في الموضوع فأكثر تفصيلا ، فقد وضع قائمة لأسماء المنشآت العمرانية التي احتوتها سجلماسة أيام أبي القاسم وهي :

١ – مساجد الخطبة بلا عدد .
٢ – حمامات .
٣ – قيسويات .
٤ – حوانيت في كل شارع .
٥ – أسواق .
٦ – فندق للتجار .

وهكذا أصبحت مدينة سجلماسة ف يأيام أبي القاسم « مدينة العلم والقراءة وأهل الصناعة والتجارة » [٦١] .

٦ – الحياة الاقتصادية :

في مخطوط « التعريف بمدينة سجلماسة « معلومات عن نشاط الحياة الاقتصادية في سجلماسة . إذ كانت الزراعة منتعشة في سجلماسة بفضل جهود حكامها المكناسيين . فقد استكثر عيسى بن يزيد أول حاكم مكناسي فيها » منغرس النخيل والأشجار والزرع وغير ذلك فكثرت فيها الخيرات والبركات » [٦٢] واحتوت سجلماسة على الكثير من البساتين والمزارع والمراعي أيام حاكمها أبي القاسم . واهتم الحاكم الذي سماه أبو محلي بـ « المنتصر بالله » بتكثير « التمر والزرع والفاكهة » في سجلماسة [٦٣] .

ولم يقتصر عمل حكام سجلماسة الأوائل على تكثير الزرع ، بل وجهوا اهتمامهم إلى قضية المياه وتوزيعها بانتظام على أجزاء المدينة ، وهذا ما أنجزه عيسى وأبو القاسم [٦٤] . وبذلك أصبحت سجلماسة بفضل جهود الحكام المكناسيين هذه بلاد « ذات زرع وضرع كثيرة الخيرات معلومة البركات .

وينال نشاط سجلماسة التجاري اهتمام أبي محلي فيذكر عنها الآتي :

١ – كانت سجلماسة محطة للتجارة مع بلاد السودان « منها يسافرون الأركاب إلى بلاد السودان للتجارة » (٦٥) .

٢ – كانت سجلماسة مركزاً لالتقاء وتشعب الطرق التجارية في المغرب الأقصى . فمنها تسير المسالك التجارية إلى مدينة فاس وبلاد السوس وتلمسان وتوات ومراكش وغيرها (٦٦) .

ويذكر أبو محلى أن سجلماسة كانت محطة تسافر منها كل قوافل المغرب الخاص بالحج (٦٧) . وهذا يدل على ارتباط هذه المدينة بأنحاء المغرب المختلفة بطرق ومسالك متعددة .

٢ – كانت سجلماسة مركزاً لتوزيع وتجميع السلع والبضائع حيث تنزل فيها البركات وإليها تجلب الخيرات من كل ناحية ، فهي مدينة أهل التجارة » (٦٨) .

إن ما سجله أبو محلي عن ارتباط سجلماسة بتجارة السودان ، وعن كونه مركز تتفرع منه طرق تجارية رئيسية وفرعية أمر معروف ومؤكد في كتب الجغرافيين العرب .

أما عن النشاط الصناعي في مدينة سجلماسة فقد اكتفى صاحب « التعريف بمدينة سجلماسة » بالقول أم سجلماسة مدينة أهل الصناعة »(٦٩) ، ولم يذكر أية تفاصيل أخرى .

تكلم أبو محاي عن بعض المنتجات الزراعية والثروات الطبيعية الموجودة في سجلماسة ، فهو يذكرنا مراراً بكثرة الزروع والفواكه في هذه المدينة . ونال محصول التمر بعض عنايته فقال : إن في سجلماسة « أصناف التمر مالا يعد ولا يحصى أربعة ألوان الأحمر والأخضر والأسود وأحلى من الشهد » . ويستشهد بقول ابن بطوطة الذي زار هذه المدينة وذكر « أنها أشبه بلاد الله بمدينة البصرة غير أن تمر سجلماسه أطيب ما وجد في غيرها من البلاد »(٧٠) .

أما الثروات الطبيعية ، فقد تحدث أبو محلي عن وجود معدني الذهب والفضة في سجلماسة في أول بنائها . ومرة ثانية يستشهد بقول الرحالة ابن بطوبة عن مكان وجود الذهب والفضة ، وهو على بعد نصف يوم من سجلماسة جنوباً ، مع محاولة تحديد موقع الذهب في صحراء سجلماسة(٧١) .

٧ ـ بعض مميزات مدينة سجلماسة ونهايتها :

بعد الكتابة عن الحياة السياسية والاقتصادية لسجلماسة أيام أول حكومة

أسست فيها ، يحاول أبو محلي السجلماسي أن يظهر إعجابه الكثير بهذه المدينة ، مقدماً شيئاً عن ميزاتها ، حيث يقول : « سجلماسة قاعدة ملوك المغرب وعروس الصحراء ، وأم القرى ، واسعة الاقطار ، عامرة الديار ، وفيها تنزل البركات وإليها تجلب الخيرات من كل ناحية ، جوهرة المغرب الأقصى »[٧٢] . كما يسجل في موقع آخر من مخطوطته القول : « أن سجلماسة مدينة أهل العلم والقراءة وأهل الصناعة والتجارة »[٧٣] . وعلى ذلك جمعت سجلماسة بين كونها مركزاً سياسياً وادارياً ، وبين كونها مركزاً للانشطة الاقتصادية والفكرية في المغرب الأقصى .

ويستشهد أبو محلي ببعض أبيات شعرية للأديب المعروف لسان الدي بن الخطيب (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) وذلك بمدح سجلماسة بأعتبارها جنة الامصار ليس لها مثيل ، قاعدة ملوك الصحراء وجنة خضراء[٧٤] .

ومن جانب آخر ، أشار أبو محلي إلى علاقة سجلماسة بمراكش ، والتي تتمثل بما يلي :

١ ـ قيام أهل سجلماسة بحركات مضادة وثورات ضد ملوك مراكش ، إذ يقول : « كان الملك بمدينة مراكش كانوا يقدمون عليه أهل سجلماسة ويخالفون عليه ويحاربونه وينكسر »[٧٥] .

٢ ـ قيام بعض حكام مراكش باضعاف سجلماسة ، وذلك كما يقال بتغوير مائها الأول ، مما أضعف نهرها ، وبالتالي أضعف الجنود القائمين بها[٧٦] .

ويسجل أبو محلي ، أخيرا ، نهاية مدينة سجلماسة التي أصبحت خرابا بعد أن كانت عامرة . ويذكر في هذا الشان قصة شائعة مفادها ، أن أميرا جائرا منشغلا باللهو والعبث قد حكم سجلماسة فأفسد بين الناس وعاث بالحرمات ... فبعث الله على المدينة « ريحا صفراء سبعة أيام فأهلك الله الملك وأهل المدينة بالوباء الناكس وبقيت المدنية خالية غير دور فيها لبني عاقله التميمي وشيء من سكان قصبة الجند ومن كان خارج المدينة قبل نزول البلاء ساكنين بدورهم في البساتين ومن فر منها بنفسه[٧٧] .

ويؤكد أبو محلي على أن هذه « الحكاية صحيحية مستفاضة » ، فبالاضافة إلى شيوعها بين الناس فقد وجد لها دكرا في كتب « التواريخ » ، ولكنه لم يحدد اسم هذه الكتب . وحاول التأكد من صحة هذه الحكاية فسأل من يثق به « من أهل العلم بالتاريخ » في مدينة مراكش فوجد أنها حكاية صحيحة ، وبها انتهت سجلماسة

وأصبحت « جسداً بلا روح وأثر بنائها يخبرك عن حالها »[٧٨] . أما أهلها فقد « تفرقوا منها في قصور شاهقة وعمارة متفرقة وأشجار مشتبكة ونخل باسقة »[٧٩] .

إن حكاية نهاية سجلماسة التي انفرد بها أبو محلي لا نجد لها ذكراً عند غيره من الكتاب[٨٠] ، على الرغم من أن أبا محلي ذهب إلى تأكيد صحتها ووجودها في كتب التاريخ .

٨ ـ مصادر التعريف بمدينة سجلماسة :

يمكن التعرف على مصادر مخطوط « التعريف » في مقدمة ناسخة وهي :[٨١]

أولا : أقوال وآراء أبي محلي .

ثانيا : نقولات أبي محلي من مصادر متنوعة ، وهذه النقولات مستقاة من :

١ ـ مصادر ذكرها أبو محلي معتمداً عليها وناقلا منها وهي :

أ ـ كتاب « الاعلام » للسان الدين بن الخطيب[٨٢] .

ب ـ رحلة ابن بطوطة ، لأبي محمد ابن بطوطة الطنجي[٨٣] .

٢ ـ كتب التاريخ التي قرأها أبو محلي ، إلا أنه مع الأسف لم يذكر لنا شيئاً عن أسمائها أو مؤلفيها[٨٤] .

٣ ـ سؤال الثقاة من أهل العلم بالتاريخ من أهل مدينة مراكش[٨٥] .

٤ ـ الروايات الشفهية الشائعة والمعروفة ، وذلك بعد التأكد من صحتها[٨٦] .

ثالثا : تأسيس مدينة سجلماسة .

١ ـ الأصول القديمة للمدينة :

لم يستطع الدارسون من الباحثين المحدثين للروايات التاريخية الخاصة بتأسيس مدينة سجلماسة والتي سجلها بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب من فك عقدة المشكلة الخاصة ببناء سجلماسة ، فقد ظلت كثير من الأسئلة حول الموضوع بدون جواب[٨٧] .

وفي مخطوط « التعريف بمدينة سجلماسة » سجل لنا ابو محلي نصا حول تأسيس سجلماسة ، وقد جذب هذا النص انتابهنا لأمرين : أولهما ، اختلافه لما جاء في كثير من الروايات العربية حول اسم المؤسس وظروف التأسيس . وثانيهما ، امكانية مناقشة ما جاء في النص من معلومات بالبحث عما يؤكده أو يخالفه من

روايات في النصوص العربية التي سجلها بعض المؤرخين والجغرافيين حول تأسيس مدينة سجلماسة .

يبدأ أبو محلى موضوع تأسيس سجلماسة بنقل نص من كتاب « الأعلام » لابن الخطيب ، على حد قوله ، يتعلق بالأصول للمدينة ، وهذا ما نصه :

« ومن كتاب الاعلام لابن الخطيب قال رحمه الله ورضي عنه ، ميدنة سجلماسة أو القرى وأعظم مدائن الصحراء ، قد كانت عامرة في الزمن القديم بقبائل ذات عمود وكـات مرعى النغم والابـل وليس فيهـا بناء غير أنهار جارية أشجار ملتفة وكثرة الوحوش وذلك زمن ذو القرنين حين بلغها وجد فيها قبائل متعددة . وقيل إن أهلها الأقـدمـين من بقـايـا عسكـر ذى القرنين تخلف بها عنه حين سلكها وأعجبتهم واستوطنوت بها »(٨٨) .

لم نعثر على هذا النص في كتاب ابن الخطيب المشهور « أعمال الاعلام » . فهل كان عند أبي محلي نسخة أخرى من هذا الـكتاب عثر فيها على هذا النص فسجله ، ومهما يكن الأمر ، فمن هذا النص يتبين لنا الآتي :

١ – كانت سجلماسة قديماً منطقة خالية من البناء ، ولم تكن في بدايتها سوى مرعي للغنم والابل تنتجع إليها قبائل المنطقة لتوفر المياه فيها وهذا ما ذهبت إليه نصوص الجغرافيين والمؤرخين ، التي تجمع على أن سجلماسة مدينة محدثة وليست أزلية ، وأنها مكان ينتجع إليه الرعاة ، وبراح يجتمع فيه سكان تلك النواحي في موسم معين من السنة للتسوق (٨٩) .

٢ – لم يشر أبو محلي فيرواية ابن الخطيب التي سجلها إلى أسماء أو أصول القبائل التي وصلت إلى منطقة سجلماسة قبل بناء المدينة « بزمن قديم » .

٣ – كما أن وصول الاسكندر ذو القرنين إلى منطقة سجلماسة ، تخلف جزء من عسكره واستيطانهم بها ، هو أمر كان محل شك ابن الخطيب ومردد روايته ابن محلي .

لقد تحدث الجغرافي العربي الحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي في القرن ١٠ هـ / ١٦ م عن ارتباط سجلماسة بالاسكندر الكبير ، فقلا : وحسب رواية « هي في الواقـع هي روايـة الشعب وروايـة جغرافيا البكرى (٩٠) ، فإن المدينة أسسها الاسكنـدر لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده » . كما يذكر ليون الأفريقي رواية أخرى تنسب تأسيس سجلماسة « حسب بعض مؤلفينا إلى قائد روماني ذهب من

بريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها ، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة ، فبنى المدينة وسماها سجلوم ميس لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة ، ولأنها كانت كالخاتم الذى يسجل نهاية فتوحاته ، فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة » (٩١) .

فليون الأفريقي إذن يعطي روايتان أحدهما ما كتبه بعض المؤلفين العرب والأخرى ما كان شائعاً من ورايات شفوية بين الناس في أيامه (القرن ١٠ هـ / ١٦ م) ، بعد خراب المدينة وهجرة سكانها وإقامتهم في قصور حولها (٩٢) والواقع إن ما كان شائع على ألسنة سكان سجلماسة حول إصول القديمة لمدينتهم كان موجوداً على الألسنة أيضاً قبل ليون الأفريقي وربما بعده ، فقد قال ابن الخطيب (في القرن ٨ هـ / ١٤ م) حسب رواية أبي محلي (في القرن ١١ هـ / ١٧ م) . وهنا يخطر على البال السؤال التالي ، هل ان استمرار سكان سجلماسة بترديد رواية ارتباط وجود مدينتهم بالاسكندر ، رغبة منهم في أرجاعها لى أصول قديمة ، ومادمنا لا نمكل الدليل القاطع على وصول الاسكندر أو أحد القادة الرومان إلى منطقة سجلماسة ، فإن هذا السؤال وغيره من الأسئلة تبقى قائمة ، ويبقى معها وجود مستقر بشرى قديم في سجلماسة محط شك كبير .

٢ - تأسيس مدينة سجلماسة :

بعد أن سجل أبومحلي الرواية الخاصة بالأصول القديمة لسجلماسة انتقل إلى الكلام عن بناء المدينة ، ومرة ثانية يتبنى رواية ابن الخطيب في الموضوع فيقول : « وكان أول من بناها وعمرها وحصنها عيسى بن يزيد صاحب عكرمة مولى عبد الله بن عباس ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم » (٩٣) . إن رواية ابن الخطيب (٩٤) ومرددها أبي محلي في نسبة تأسيس سجلماسة إلى عيسى بن يزيد ، لها ما يؤيدها وما يخالفها من روايات في مصادرنا التاريخية والجغرافية .

أ - الروايات المؤيدة :

في نص صغير سجله صاحب كتاب (مفاخر البربر) سنة ٧١٢ هـ ، نقلا عن كتاب (انساب البربر وملوكهم) للفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي المجد ، وهو يتحدث عن أحد رؤوساء مكناسة المدعو أبو القاسم سمقو الذي أجمعت عليه الصفرية بالمغرب فقدموه وملك مدينة سجلماسة التي أسسها جده عيسى بن يزيد

الصفـرى سنـة ١٤٠ هـ . ذكـر ذلك عريب بن سعد في تاريخه [٩٥] . كما يذكر القلقشندى صراحة بأن الـذي اختط سـجلماسة هو عيسى بن يزيد الأسود [٩٦] .

وإذا كانت رواية صاحب مفاخر البربر والقلقشندي تتفق مع رواية ابن الخطيب ومـرددها أبو محلي في القول بصريح العبارة بأن مؤسس سجلماسة هو عيسى بن يزيـد ، فهنـاك روايات خرى ربطت تأسيس سجلماسة بعيسى ولكن بشكل آخر ، نبدأها برواية البكرى .

يذكر البكري أكثر من رواية عن تأسيس مدينة سجلماسة ، ولكن الرواية التي يميل إليها هي : أن بناء المدينة قد تم في عهد حاكمها عيسى بن يزيد [٩٧] . وربط البكري بين مبالغة عيسى كأول حاكم شرعي صفرى ناحية سجلماسة وبين الشروع في تأسيس المدينة حين قال « فلما بلغوا (قوم من الصفرية) أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود وولوه أمرهم ، وشرعوا في بنيان سجلماسة » [٩٨] .

وذهب ابن خلدون إلى ما ذهب إليه البكري من قيام الجماعة الصفرية المتنفذة في سجلماسة ببناء المدينة بعد صعود عيسى بن يزيد إلى الحكم مباشرة ، من دون الاعلان صراح أن عيسى كان صاحب القرار في تأسيس سجلمانة [٩٩] .

ويحاول القلقشندي في روايته أن يوفق بين المجموعتين من الروايات السابقة ، إذ قال أولا وبصراحة إن الذى اختط سجلماسة هو عيسى بم يزيد ـ ما ذكرنا سابقاً ـ ثم عاد ثانية فيقول : إن الجماعة الصفرية اختطت مدينة سجلماسة مباشرة بعد مبـايعة عيسى للحكم [١٠٠] . إن وضع القلقشندى لرواية تأسيس سجلماسة بهذه الطريقة تجعلنا نعرض الموضوع بالشكل التالي فنقول : إن فكرة إنشاء عاصمة لأول كيان سياسي في منطقة سجلماسة كانت من بنات أفكار أول حاكم شرعي فيها وهو عيسى ثم عرض الفكرة على الجماعة الصفرية المتنفذة فرحبوا بها ووضعوها موضع التنفيـذ . ومن هنـا نستدل على سبب اختلاف روايات مؤلفينا في كون عيسى هو مؤسس سجلماسة أو أنها أسست على عهدها .

ب - الروايات المخالفـة :

هنـاك مجمـوعـة من الروايات سجلها بعض المؤرخين والجغرافين العرب عن تأسيس مدينة سجلماسة تخالف ما ذهب إليه أبو محلي والروايات المؤيدة لروايته . فصاحب الاستبصار (وهو كاتب مراكش من أهل القرن ٦ هـ / ١٢ م) يتجاهل تماماً عيسى بن يزيد ، ويربط تأسيس سجلماسة برجل يدعى « مدرار بن عبد الله ،

وهو عنده أول حاكم صفرى فيها (١٠١) واسم مدرار ـ كما ذكرنا سابقاً ، يبرز عندنا لأول مرة في رواية سجلها البكرى عن تأسيس سجلماسة ، وهي رواية محاطة بكثير من الشكوك ومناقضة لرواية عيسى . ومفاد هذه الرواية : أن رجلا حداداً يسمى مدرار من سكان ربضية قرطبة جاء إلى ناحية سجلماسة فكان سبباً في بناء المدينة (١٠٢) . ويأتي ارتباط مدرار بن عبد الله بتأسيس سجلماسة عند القلقشندي في رواية ضعيفة لم يأخذ بها (١٠٣) .

والغريب أن الكتاب الآخرين مثل ابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون تجاهلوا رواية البكرى وصاحب « الاستبصار » . بشأن مدرار وتأسيس سلجماسة ، ولهم رأى آخر في مدرار بوصفه لقب أواسم لأحد حكام سجلماسة ، وليس اسم مؤسس المدينة (١٠٤) كما إن مدرار كان محل تشويش للباحثين لوجود أكثر من حاكم تسمى بمدرار في سجلماسة ، كما فصلنا سابقاً .

أما رواية ابن عذارى فتذهب إلى أن التأسيس حدث في زمن أبي القاسم سمقون بن واسول المكناسي وكان هذا صاحب ماشية قد اجتمع عليه قوم من الصفرية في منطقة سجلماسة وسكنوا معه هناك في خيام « ثم شرعوا في البناء في حدود الأربعين ومائة ، ثم قدموا عل يأنفسهم عيسى بن يزيد الأسود ، وولوه أمرهم (١٠٥) . وهذا يعني أن أبا القاسم والجماعة الصفرية قد بدأوا بتأسيس سجلماسة قبل أن يتولى عيسى حكم الصفرية بقليل ، وبذلك يخالف الروايات التي ربطت بين صعود عيسى إلى حكم الصفرية المكناسيين وتأسيس مدينة سجلماسة ، ولكنه يتفق معها في كون تأسيس المدينة كان قراراً جماعياً لصفرية سجلماسة .

إن المستندات التي بين أيدينا عن تأسيس مدينة سجلماسة والتي قدمتها الروايات العربية يمكن أن نقسمها إلى :

١ – المجموعة الأولى وهي التي ربطت التأسيس باسم أول حاكم لأول حكومة في سجلماسة .

٢ – المجموعةالثانية ، وهي التي عرضت التأسيس على أنه قرار جماعي أقرته الجماعة الصفرية المنفذة صاحبة السلطة العليا في سجلماسة في عهد عيسى بن يزيد ، أو قبله بقليل .

٣ – المجموعة الثالثة ، وهي التي ذهب إلى ترشيح اسم شخص آخر أسس سجلماسة غير عيسى .

لقد ربطت المجاميع الثلاث بين قيام أول كيان سياسي في سجلماسة وبين ضرورة وجود مستقر ومركز سياسي وادارى للحكومة المشكلة . وليس غريباً أن يكون القرار في تأسيس مدينة سجلماسة ، قراراً جماعياً للسلطة الصفرية المنتظمة في سجلماسة ، بخاصة وان الجماعة الصفرية قد اعتادت على القرارات الجماعية . فقد أشارت المصادر مثلا إلى عزل أو لحاكم في سجلماسة (وهو عيسى بن يزيد) كان قراراً جماعياً (١٠٦) .

أما ظهور أسماء أخرى في الروايات العربية ربط اسمها في قضية تأسيس سجلماسة ، فهذا يمكن أن يعزى إلى أن هذه المدينة قد عمرتوتطور عمرانها في أيام بعض الحكام الصفريين الذين خلفوا عيسى بن يزيد في حكمها ، وبتقادم الزمن على الأحداث جعل بعض الكتاب هذا التعمير تأسيساً ، فظهرت عدة أسماء في تأسيس سجلماسةوليس أسماً واحداً . وأمام كل هذا نرى من الضرورى التعرف على الظروف التي تأسس فيها مدينة سجلماسة ، لنستطيع إظهار المزيد من المعلومات التي لها صلة بالموضوع .

٣ - ظروف التأسيس :

لمعرفة الظروف التي تأسس فيها مدينة سجلماسة لابد لنا من التعرف على أول حاكم لأول كيان سياسي قام في سجلماسة ، إذ عندما نعود إلى الرواية التي سجلها أبو محلي عن سجلماسة ، نجده يذهب إلى أن أول حاكم شرعي للصفرية في سجلمانة هو عيسى بن يزيد (١٠٨) . ويشذ عن هذا الاجماع صاحب «الاستبصار» في روايته ، حيث جعل مدرار بن عبد الله هو أول حاكم صفرى في سجلماسة متجاهلا عيسى بن يزيد تماماً (١٠٩) . ويجعل القلقشندي من مدرار بن عبد الله زعيماً دينياً للمجموعةالصفرية في منطقة سجلماسة قبل ظهور عيسى على مسرح الأحداث (١١٠) . وللبكري وابن عذارى رأى آخر ، إذ يفهم من حديثهما أن أبا القاسم كان صاحب الكلكة العليا للجماعة الصفرية في سجلماسة قبل اعتلاء عيسى للسلطة فيها (١١١) .

إن حل هذا التشابك في الآراء يمكن أن يكون بالشكل التالي : ما دام هناك اتفاق جماعي بين الكتاب العرب على وجود مجموعة صفرية في منطقة سجلماسة قبل قيام أول حكومة فيها ، فليس من المستبعد وجود صاحب سلطة عليا بينهم ، وهذا ما يفهم من بعض الروايات العربية ، ولابد أني كون صاحب الكلكة العليا من بين الأسماء

التي ظهرت في قضية تأسيس سجلماسة مثل مدرار أو أبو القاسم . أما عيسى فهو أول رئيس شرعي منتخب في سجلماسة باعتراف أغلب الروايات . ولهذا ليس غريبا حقاً أن ينسب بناء مدينة سجلماسة إلى أول رجال حكومتها الأولى ، وليس غريباً أيضاً أن يؤسس هذا الحاكم مدينة تكون بمثابة المركو السياسي والاداري له . ولكن الغريب أن ينسب التأسيس إلى رجل صفته صاحب الكلمة المسموعة بين الجماعة الصفـريـة ، كما جاء في بعض الروايات . وفضلا عن ذلك فإن ارتباط التأسيس بشخص غير عيسى ربما جاء عند بعض الكتاب العرب ، عن طريق ما عرفوه من وجود مجمـوعة من الخيام في منطقة سجلماسة سكنتها الجماعة الصفرية قبل تأسيس مدينة سجلماسة ، فاختلط الأمر عليهم وجعلوا ذلك بداية لتشييد المدينة . إن فهمنا لتأسيس مدينة سجلماسة بهذه الطريقة يدعونا إلى التعرف على مؤسسها عيسى بن يزيد .

القى أبو محلي الضوء على شخصية عيسى بن يزيد حيث يقول : أنه صاحب عكرمة مولى عبد الله بن العباس ابن عن النبي (صلى الله عليه وسلم) . والظاهر أن اسم عكـرمـة [١١٢] يظهـر في معظم روايـات تأسيس سجلماسة التي سجلها الجغرافيون والمؤرخون العرب ، باعتباره شيخاً لأحد حكامها [١١٣] .

فابن الخطيب ، الذي تبنى أبو محلي روايته ، لا يذهب مع ما ذهب إليه الأخير ، بل يقول أن سعد جد عيسى بن يزيد هو الذى التقى في المغرب بعكرمة [١١٤] . أما صاحب مفاخر البربر ، فله رأى آخر حيث يذهب إلى أن أحد أحفاد عيسى بن يزيد المسمى أبو القاسم سمقو بن واسول المكناسي الصفرى هو الذي لقي بالمغرب عكرمة مولى عبد الله بن العباس (رض) [١١٥] ، وهذا الرأى هو ما ذهب إليه البكري [١١٦] .

ويخـالف روايـة البكـرى وصـاحب مفـاخـر البربر ، رواية قال بها صاحب الاستبصار وابن خلدون ، وهي أن والد أبي القاسم هو الذي التقى بعكرمة وأخذ العلم عنه ، وليس أبو القاسم ، ويسميه صاحب الاستبصار بمدرار [١١٧] ، بينما يسميه ابن خلدون سمقو ويجعل لقاءه بعكرمة في المدينة وليس في المغرب كما قال غيره [١١٨] . ويأتي القلشندي برواية جديدة مفادها أن هناك أكثر من شخص واحد من صفرية سجلماسة قد التقى بعكرمة وأخذ العلم عنه ، فسمقو والد أبي القاسم رحل إلى المدينة وأخذ عن عكرمة ، ومدرار بن عبد الله (شيخ الصفرية قبل ترأس

عيسى عليهم) كان قد لقى عكرمة بأفريقية وسمح عنه [١١٩] .

وهكذا اختلفت آراء الكتاب العرب مرة أخرى ، ولعل ما قاله القلقشندي من مقابلة أكثر من واحد من صفرية سجلماسة لعكرمة هو سبب هذا الاختلاف .

أما نسب عيسى بن يزيد ، فرواية أبي محلي لا تعنينا بشيء عن الموضوع . وذهب ابن الخطيب إلى أنه عيسى بن يزيد بن سعد المكناسي الزناتي [١٢٠] ، فهو عنده من قبيلة مكناسة أحد فروع زنانة . وهذا ما قالبه صاحب مفاخر البربر ، مضيفا إلى أن عيسى بن يزيد كان جداً لأبي القاسم سمقو بن واسول المكناسي الصفرى [١٢١] . فهو حسب هذه الرواية لم يكن مكناسياً فقط بل كان جد العائلة المكناسية الصفرية التي تزعمت أول حكومة في سجلماسة .

والمدهش أن البكرى جاء برواية أخرى عن نسب عيسى ، فقال أنه من السودان ولقبه بالأسود دون الاشارة إلى ارتباطه بمكناسة [١٢٢] ، كما فعل ذلك كل من ابن عذارى وابن خلدون والقلقشندي [١٢٣] . وبهذا أعطي عيسى نسباً زنجياً . والظاهر أن مثل هذا النسب ليس غريباً على صفرية سجلماسة، ففي رواية صاحب الاستبصار عن حكام سجلماسة الصفرية يذكر أن مدرار بن عبد الله جدهم الأعلى « كان رجلا أسود وأولاده قد هجوا بذلك » [١٢٤] . وهذا يعني أن الأسرة الصفرية الحاكمة في سجلماسة كانت قد حملت نسباً زنجياً ، وإذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فإن هذا النسب ظهر بين سكان سجلماسة عن طريق علاقاتهم التجارية الوثيقة والمعروفة مع بلاد السودان الغربي .

يتسمر أبو محلي في التعريف بعيسى فيقول عنه أنه كان « صاحب ماشية وغنماً وإبلا وكان له ألف من الخيل تركب لركوبه وعلى أمره ونهيه » [١٢٥] ، فهو صاحب مال وفوة إذن . ثم يسجل أبو محلي تفاصيل الظروف التي ساقت عيسى إلى سجلماسة ، وهي تنقله من مكان إلى آخر بماشيته ، فد سار من طرابلس إلى أفريقية واستمر في سفره حتى قدم منطقة سجلماسة . وأعجب عيسى بن يزيد بناحية سجلماسة بعد أن « وجدها أخصب بلاد الله وأطيب مرعاً وماء وهواء » [١٢٦] . وقريب م هذه التفاصيل نجدها في رواية ابن الخطيب [١٢٧] ، أما بقية الروايات فلا شأن لها بهذا الأمر [١٢٨] .

ينتقل أبو محلي بعد ذلك إلى الكلام عن انتخاب عيسى رئيساً فيقول : أن عيسى التقى في منطقة سجلماسة بقبائل على نحو العشرة آلاف وقدموه على أنفسهم [١٢٩] ، دون اضافة شيء آخر . وهذه البيعة الغامضة لعيسى من قبل قبائل منطقة سجلماسة

قال بها ابن الخطيب أيضاً ، لكنه ذكر أن قبائل سجلماسة كانت من زنانة الصفرية وقدر عددهم بأربعة آلاف ، كما حدد زمن وصول عيسى إلى سجلماسة بعا ١٣٨ هـ (١٣٠) .

وإذا كان أغلب المرخين والجغرافيين قد أشاروا إلى بيعة غامضة تمت لعيسى في سجلماسة تولى بموجبها أمر الصفرية هناك ، فلابد من وجود أسباب دعت إلى انتخابه رئيساً . يأتي في مقدمة هذه الأسباب ، كما يفهم من كلام ابن الخطيب وأبي محلي ، هو امتلاك عيسى للمال والقوة (١٣١) . ويضيف أبو محلي أسباباً أهم ، وهي صفات العقل وحسن التدبير التي كان يتمتع بها عيسى بن يزيد فيقول :

« وكان رجلا عاقلا يحسن التدبير فقام بأمرهم وعمر البلاد وانتفعت به العباد » (١٣٢)يضاف إلى ذلك صفة الصفرية التي كان يحملها . إذ يستفاد من رواية ابن خلدون أن عيسى لم يكن صفرياً ، بل كان من رؤوساء هذا المذهب ، فهو عندما يتكلم عن سكان سجلماسة المكناسيين وتبنيهم للمذهب الصفري الخارجي منذ وقت مبكر يقول بأنهم « آخذوه من رؤوس من العرب لما لحقوا بالمغرب » . ثم وصف بروز جماعة متكونة من أربعين رجلا من بينهم من له صفات الزعامة والقيادة « نقضوا طاعةالخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج » (١٣٣) .

على أن الصفة الدينية لعيسى وموقفه بين الخارجية دعى الزعامة الصفرية إلى اختياره ليكون أول رئيس عليهم . والشيء الذى نتمنى لو أشار إليه ابن خلدون هو ، هل كان عيسى بن يزيد أصحاب القيادة العليا الصفرية الأربعين في سجلماسة قبل توليه السلطة ، بخاصة وإن رواية ابن الخطيب تذكر أن وصوله إلى سجلماسة كان سنة ١٣٨ هـ وإن انتخابه رئيساً قد تم ، كما هو معروف في المصادر سنة ١٤٠ هـ (١٣٤) وهذا ما يدعونا إلى التساؤل أيضاً : هل انضم عيسى إلى الجماعة الصفرية المتنفذة خلال الفترة ما بين وصوله إلى سجلماسة وبين توليه السلطة فيها ؟

انجازات عيسى في الحكم :

ينفرد أبو محلي في روايته عن عيسى بتسجيل تفاصيل الأعمال التي أنجزها عيسى بن يزيد خلال فترة توليه رئاسة الحكومة الصفرية في سجلماسة . إذ بدأ عيسى حكمه بإنشاء عاصمة للصفريين في منطقة سجلماسة ، واهتم بتعميرها وتحصينها ، ويبدو

أنه قسم المدينة إلى أربعة أرباع ، حيث يتضح ذلك من خلال عنايته بتنظيم توزيع ميـاه الأنهار الدائم على أحياء المدينة ، وفي هذا يقول أبو محلي : « فأجرى فيها الأنهار بقدر موزون وصرف لكل ناحية قسطها بقدر ما تحمله ، وكان يقسم مياه نهرها على نواحيهـا الأربعـة » (١٣٥) . ومن منجزات عيسى في سجلماسة اهتمامه الزايد بالزراعة مما أدى إلى كثرة الخيرات فيها أيام حكمه (١٣٦) .

إن الانجازات التي قام بها عيسى أثناء فترة حكمه لسجلماسة قد عددها صاحب كتاب الاعلام (١٣٧) ، فكان أبومحلي مردداً لها . أما المصادر الأخرى التي كتبت عن عيسى فلم تسجل له مثل هذه الأعمال (١٣٨) .

نهاية حكم عيسى :

يصف أبـومحـلي نهاية حكم عيسى بن يزيد لسجلماسة بقوله : « فقالم نحو خمسين سنة وتولى أمرها من بعده أبوالخطيب الصقع الصفرى الزناتي » (١٣٩) . وبهذا يكون قد اختلف عن جميع الروايات العربية ، حتى رواية ابن الخطيب .

يجمع الكتاب العرب على أن نهاية عيسى لم تكن طبيعية ، وإنما تم خلعه من قبل أصحابه الصفرية لتصرفات أنكروها عليه ، دون أن يتحدثوا عن هذا السلوك الشاذ المنكر الذي لم يؤد إلى عزله بل وإلى قتله أيضاً (١٤٠) .

إن عرض الروايات العربية لنهاية حكم عيسى بشكل مقتضب يثير الانتباهاه . ومما يزيد المسألة غموضاً ، أن ابن الخطيب وصف نهاية عيسى بأنها كانت عملية غدر من قبـل صفـريـة سجلمـاسـة بقوله : « ثم إن الصفرية غدروه سنة سبع وستـين (١٦٧ هـ) فقبضـوا عليـه وشـدوه وثاقاً إلى أصل شجرة في أصل جبل عيسى » (١٤١) . ولم يذكر هذا المؤلف سبباً واحداً في توضيح هذا الغدر .

أما البكرى فقد عرض الموضوع بشكل آخر ، حيث يذهب إلى تحديد المعرض الأول على عزله وقتله وهـو « أبوالخطاب » ، الذي قال « يوماً إصحابه في مجلس عيسى ، السـودان كلهم سراق حتى هذا وأشار إلى عيسى فأخذوه وشدوه وثاقاً إلى شجرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض فسمي ذلك الجبل بجبل عيسى إلى اليوم » (١٤٢) .

إن التهمة التي ألصقها أبو الخطاب بعيسى غير واضحة في نص البكري ولكنها ، على ما يبدو ، تدور حول قضايا مالية . وبهذا انتهى حكم وحياة عيسى بن يزيد أول حاكم لأول حكومة في سجلماسة .

الخاتمـــة

إن موقـع سجلمـاسة التجاري والأحداث التأريخية المهمة التي مرت عليها ، وامتلاك كثير من الحكام والأمراء لأمرها ، ومرور مختلف القبائل والأجناس عليها ، كل ذلك جعل الروايات الخاصة بسجلماسة متشابكة ، بخاصة تلك التي بعدت أيامها وارتبطت ببداية ظهور المدينة على مسرح الأحداث في بلاد المغرب .

وبعد أنفصلنا في جميع ما قدمه أبو محلي من روايات عن سجلماسة جاز لنا تسجيل ما يلي :

١ – اختار أبو محلي ما كان مرجحاً من روايات عند لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الاعلام » مصرحاً بذلك أحياناً وغافلا أخرى . والملاحظ من المقارنة التي عقدنا ها بين معلومات أبي محلي وابن الخطيب ، إن بعض هذه المعلومات مثبتة فعـلا في كتاب « الاعلام » بنفس الصيغة التي سجلها أبو محلي أو بصيغة مختلفة . إلا أننا لم عثر على معلومات أخرى نسبها أبو محلي إلى ابن الخطيب ، ولعل عذره في ذلك أنه كان يمتلك نسخة أخرى لكتاب (الاعلام) لم تصلنا .

٢ – أغفل أبو محلي الروايات الأخرى الخاصة بتأسيس سجلماسة وحكومتها الأولى والمسجلة في بعض كتب التأريخ والجغرافية العربية الوسيطة ، والتي لابد أنها كانتمتوفرة في أيامه ، كرواية البكرى وابن عذارى وابن خلدون وغيرها . فهل كان سبب ذلك إيمانه بصحة ا جاء به ابن الخطيب فتجاهل الباقي .

٣ – كان أبو محلي يحاول وهو يكتب عن سجلماسة أن يتأكد من المعلومات التي دونهـا سواء في كتب يقرؤها أو أسئلة شفوية يطرحها على رجال التأريخ في زمانه . ولذا فإن ما جاء به عن سجلماسة لابد أن يحمل شيئاً من الحقيقة .

٤ – أعرب أبو محلي في موضوع الأصول القديمة لسجلماسة عن ضعف الرواية التي ذهبت إلى استقرار بقايا من جيش الاسكندر في منطقة سجلماسة .

٥ – أكد أبو محلي أن منطقة سجلماسة كانت قد شهدت وصول عدد من القبائل متخذة منها مرعى ، وكان ذلك بداية سجلماسة .

٦ – تكلم أبو محلي عن أول حكومة تأسست في سجلماسة والواضح مما كتبه أنه لم يكن مهتمـاً بأن يلم بجميـع جوانب هذا المـوضوع ، كمالم يهتم بضبط التواريخ والسنين .

٧ – كتب أبو محلي عن تأسيس مدينة سجلماسة ، وقد نسب التأسيس إلى أول حاكم كيان سياسي في منطقة سجلماسة وهو عيسى بن يزيد .

وبعد مناقشة الروايات العربية الخاصة بتأسيس سجلماسة ،وجدنا أن ما ذهب إليه أبو محلي هو أقرب إلى الصواب هي نسبة تأسيس المدينة إلى رجل لم يكن يحمل صفة الحاكم الشرعي في سجلماسة أو إلى الحاكم الثاني في حكومة المدينة الأولى .

مصادر البحث

(١) الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣ ـ ٤ هـ / و ـ ١٥ م) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ٩٣ شاكر مصطفى ، المدن في الاسلام حتى لعصر العثماني ، ذات السلاسل ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ج ١ (المقدمة) .

(٢) تعد سجلماسة عاصمة قديمة لاقليم واسع يدعى تفيلالت أو تافيلالت ، ويقع وراء الأطلسي المتوسط والكبير ، ومتاخماً لواحات فجيج وحدود الجزائر شرقاً ، وبسائط درعة ونجودها غرباً .يجرى في تافيلالت نهر غريس ، وزيز وكير ، تتكثر على ضفافها أشجار النخيل وتتعدد الواحات الخضراء . محمد حجي ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (منشورات دار المغرب ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨) ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٣) سجل لسان الدين بن الخطيب كلمات قليلة ذات لول عظيم في وصف مدينة سجلماسة وكونها قاعدة ملك قديمة ومدينة مشهورة ارتبطت بتجارة الذهب التي جلبت لها الثروة . كما أشار إلى نشاطها العسكري وصفات سكانها وأرضها . أنظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، تحقيق أحمد مختار العبادى (مطبعة الاسكندرية ، ١٩٥٨) ص ١١٣ ، وللمؤلف نفسه ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ترجمة محمد كمال شبانة (نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب ، ١٩٧٧) ص ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٤) أبو أسحق ابراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسين (القاهرة ، ١٩٦١) ص ٣٤ ، ٣٧ ـ ٩ ، أبو القاسم النصيبي ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٦٥ ، ٩٠ ـ ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، أبو عبد الله بن أحمد المقدسي البشارى ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، (ليدن ، ط ٢ ، ١٩٠٩) ص ٢٣١ ، أحمد بن واضح اليعقوبي ، البلدان ، بريل ، ١٨٩٢) ص ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ، أبو عبد الله محمد بن محمد الأدريسي ، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، تحقيق محمد حاج صادق (باريس ، ١٩٨٣) ، ص ٧٦ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان (دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥) ج ٣ ، ص ١٩٢ ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد (المانيا ، ١٩٦٧) ص ٣٧ ابن سعيد المغربي ، الجغرافية ، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت ، ١٩٧٠) ص ١٢٤ ، عماد الدين اسماعيل أبو الفدا ، تقويم البلدان ، تحقيق البارون ماك كوكين ديسلان (باريس ، ١٨٤٠) ص ١٣٦ ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهرى ، الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق (بلا . ت) ، ص ١٩٠ ، محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩) ج ٢ ، ص ٧٧٢ ـ ٣ ، علي بن عيسى الديهي ، كتاب عجائب البلدان والجبال والأحجار ، مخطوط الدراسات العليا ، جاعة بغداد ، كلية اكداب ، رقم ١٤ ، ورقة ٣١ ؛ عبد الرشيد صالح بن نورى الباكوي ، كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار ، رجمة ضياء الدين موسى بونياتوف (دار النشر للتعليم ، موسكو ، ١٩٧١) ، ص ٦ .

(٥) أنظر : عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تخليص أخبار المغرب ، محمد سعيد العريان (القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٣) ، ص ٤٠٩ ، ٤٤٣ ، أبو الحسن علي بن أبي زرع ، الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية (دار المنصور للطباعة والوارقة ، الرباط ، ١٩٧٢) ص ٦٨ ، ٨١ ـ ٨٢ ـ ع ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٦ ، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق حسين نصار (القاهرة ، ١٩٨٣) ص ٢٤ ، ٢٦٠ ـ ١ .

(٦) عن حباة أبي محلي أنظر : أحمد بن محلي السجلماني ، التعريف بمدينة سجلماسة ، مخطوط الخزانة الملكية في الرباط ، رقم ٢٦٣٤ ، ورقة ١ ، ٥ ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى (دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥) ق ٢ ، ج ٦ ص ص ٢٦ ـ ٣٤ ، محمد الحجي ، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلي والسياسي (المطبعة الوطنية ، الرباط ، ١٩٦٤) ، ص ص ١٣٢ ـ ٤ ، وللمؤلف نفسه ، الحركة الفكرية ، ج ١ ص ص ٢٢٧ ـ ٣٠ ، ج ٢ ص ٥٥٢ ، ٦٢٥ ـ ٦ .

(٧) الحجي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥ .
(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢ .
(٩) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣ .
(١٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ص ٣٢
(١١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ص ٣٢ ـ ٣ .
(١٢) محمد حجي ، الزاوية الدلائية ، ص ١٣٥ .
(١٣) الاستقصاء ق ٢ ، ج ٦ ، ص ٣٣ .
(١٤) التعريف بمدينة سجلماسة ، ص ١ . يقول أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى ، إن الذى رمز تأريخ ثورة أبي محلي ووفاته هو الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد المراكشي ، أنظر : الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ، ص ٣٤ .
(١٥) أنظر ترجمة اليوسي في محمد حجي ، الزاوية الدلائية ، ص ص ٦٥ ـ ٦ ، علماً إن كتاب « المحاضرات » لليوسي منشور في فاس بطبعة حجرية صدرت عام ١١٣١٧/١٨٩٩ .
(١٦) التعريف بمدينة سجلماسة ، ص ٥ .
(١٧) أبيات شعر أبي محلي في مدح سجلماسة هي :

وتافلالت أسمها بالبربر بفضل أهلها أخبر ما أخبر
وهي في القاموس سجلماسة قاعدة للملكوالرياسة
منازل الأخبار ثم الشرفا دار الملوك ثم دار الخلفا
مأوى للأولياء ثم العلما كذلك الأبطال ثم الكرما

(التعريف بمدينة سجلماسة ، ص ١) .
(١٨) سنتتبع هذه الرواية ونقارنها مع ما جاء من مثيلاتها فيالمصادر العربية في الصفحات التالية .
(١٩) أنظر عن هذه الامارة : مؤلف مجهول ، نبذ تأريخية عنأخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخب من كتاب : مفاخر البربر ، تحقيق ليفي بروفنسال (المطبعة الجديدة ، الرباط ، ١٩٣٤) ، ص ٤٨ ، لسان الدين بن الخطيب ، تأريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتاني (دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤) ، ص ص ١٣٧ ـ ١٤٩ ، عبد الرحمن بن خلدون ، تأريخ ابن خلدون (دار الكتاب اللبناني ، د . ت) ، ج ١ ، ص ص ٢٦٧ ـ ٢٧٣ .
(٢٠) التعريف بمدينة سجلماسة ، ورقة ٢ .
(٢١) أعمال الاعلام ، ص ١٤٠ .
(٢٢) أبوعبد الله بن عبد العزيز البكرى ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك (الجزائر ، ١٨٥٧) ص ١٤٩ .
(٢٣) ماك كول ، الروايات التأريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة ، تعريب محمد الحمداوى (الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٣٩٥ هـ) .
(٢٥) مفاخر البربر ، ص ٦٦ .

(٢٥) أنظر ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج . س كولان وليفي بروفنسال (دار الثقافة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠) ج ١ ، ص ص ١٥٦ ـ ٧ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ـ ٨ ، أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق نبيل خالد الخطيب (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧) ج ٥ ، ص ١٦٠ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٦ ، ص ١١٢ .
(٢٦) التعريف ، ص ٢ .
(٢٧) مفاخر البربر ، ص ٤٨ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .

(٢٨) البكرى ، المسالك ، ص ١٤٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٤٠ .
(٢٩) البكرى ، المسالك ، ص ١٥٠ ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٤١ ، مفاخر البربر ، ص ٤٨ .
(٣٠) البكري ، المسالك ، ص ١٤٩ ، ابن الخطيب ، ص ص ١٤٠ ـ ١ .
(٣١) مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ص ١٩٨٥) ص ٢٠١ .
(٣٢) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(٣٣) البيان ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ ، الملاحظ أن أبن خلدون لا يسمي المكناسيين في سجلماسة ببني مدرار بل يسميهم ببني واسول وهذا إهمال تام لمدرار .
(٣٤) البكرى ، المسالك ، ص ١٤٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .
(٣٥) الاعلام ، ص ١٤٠ ـ ١ ، التعريف بمدينة سجلماسة ، ورقة ٢ .
(٣٦) الاعلام ، ص ص ١٤٠ ـ ١ .
(٣٧) التعريف ، ورقة ٢ .
(٣٨) أنظر البكرى ، المسالك ، ص ١٥٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ـ ١ ، ص ١٥٧ ، ابن الخطيب ، الاعلام، ص ص ١٤٢ ـ ٩ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ . ص ص ٣٩٨ ـ ٧١ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ، ص ١٦٠ ـ ٢ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٦ ، ص ص ١١٢ ـ ٤ .
(٣٩) تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٧١ ، انظر أيضاً القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٢ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٦ ، ص ١١٤ .
(٤٠) المعروف أن عدداً من حكام سجلماسة قد حمل لقب المنتصر . أنظر ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ص ١٤٢ ـ ٤٧ .
(٤١) انظر : مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٤٨ ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٤٨ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٧٠ .
(٤٢) ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٤٨ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٧١ ، القلقشندى ، صبح الاعشيى ، ج ٥ ، ص ١٦٢ .
(٤٣) ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٧١ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٢ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٦ ، ص ١١٤ . ومما يذكر أن ابن الخطيب الذى تبنى أبو محلي ورايته لم يورد شيئاً عن حكام سجلماسة المكناسيين بعد الشاكر لله . الاعلام ، ص ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٤٤) التعريف ، ورقة ٢ .
(٤٥) المصدر نفسه .
(٤٦) الاعلام ، ص ١٣٩ ، ١٤٣ .
(٤٧) يسجل ابن عذارى بصريح العبارة بشأن سور سجلماسة الآتي : وموضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ، ثم زاد ملك اليسع المذكور وأمر ببناء السور . البيان ، ج ١ ، ص ١٥٧ .
(٤٨) البكرى ، المسالك ، ص ١٤٨ .
(٤٩) المصدر نفسه ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .
(٥٠) التعريف ، ورقة ٢ .
(٥١) الاعلام ، ص ١٤٣ ، انظر أيضاً الاستبصار ، ص ٢٠١ .
(٥٢) المسالك ، ص ١٤٨ . هذا معالعلم أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن أبواب سور سجلماسة .
(٥٣) التعريف ، ورقة ٢ .
(٥٤) المصدر نفسه .
(٥٥) المصدر نفسه .

(٥٦) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٥٧) المصدر نفسه .
(٥٨) ابن حلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ .
(٥٩) ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٤٣ . إلا أنه لم يشر إلى كيفية توزيع القبائل في سجلماسة ، وقال ان التوزيع « كان حسبما هو عليه في أيامه » .
(٦٠) ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج . ، ص ١١٢ .
(٦١) التعريف ، ورقة ٣ .
(٦٢) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(٦٣) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(٦٥) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٦٦) المصدر نفسه .
(٦٧) المصدر نفسه .
(٦٨) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(٦٩) المصدر نفسه .
(٧٠) المصدر نفسه ، ورقة ٣ . لقد تحدث ابن بطوطة فعلا في رحلته عن تمر سجلماسة ، انظر : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور علي المنتصر الكتاني (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٩) ج ٢ ، ص ص ٧٧٢ ـ ٣ .
(٧١) التعريف ، ورقة ٣ ـ ٤ . لم أعثر في رحلة ابن بطوطة عن مكان وجود الذهب في مدينة سجلماسة .
(٧٢) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(٧٤) المصدر نفسه ، ورقة ٤ . كما يورد أبو محلي جزءاً من قصيدة طويلة للشيخ أبو عقيل في مدح سجلماسة ومزاياها . التعريف ، ورقة ٤ ـ ٥ .
(٧٥) المصدر نفسه ، ورقة ٤ .
(٧٦) المصدر نفسه .
(٧٧) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٧٨) المصدر نفسه .
(٧٩) المصدر نفسه .
(٨٠) المعروف تأريخيا أن مدينة سجلماسة قد سارت في طريق الانحلال والتدهور بسبب الظروف السياسية التي مرت بها حتى انتهى أمرها تماماً في القرن ١٠ هـ / ١٦ م .
(٨١) التعريف ، ورقة ١ ـ ٢ .
(٨٢) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(٨٣) المصدر نفسه ، ورقة ٣ ـ ٤ .
(٨٤) المصدر نفسه ، ورقة ٣ .
(٨٥) المصدر نفسه .
(٨٦) المصدر نفسه .
(٨٧) كول ، المصدر السابق ، ص ص ٦٥ ـ ٦ ، الجنحاني ، المصدر السابق ، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٨ .
(٨٨) التعريف ، ورقة ١ .
(٨٩) انظر عندلك : مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٣٨ ، الحمير ، الروض المعطار ، ص ٣٠٦ .

(٩٠) لا يوجد في نص البكرى المعروف عن سجلماسة أى ذكر للاسكندر (المسالك ص ١٤٨) .
(٩١) الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الأفريقي ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر (الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الرباط ١٩٨٢) ، ج ٢ ،ص ١٢٧ .
(٩٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .
(٩٣) التعريف ، ورقة ١ .
(٩٤) ذكر ابن الخطيب « وأول من اختط مدينة سجلماسة وملكها عيسى بن يزيد » . الاعلام ، ص ١٣٨ .
(٩٥) مفاخر البربر ، ص ٤٨ .
(٩٦) صبح الاعشى ، ج ٦ ، ص ص ١٥٨ ـ ٩ . يسمي القلقشندي مؤسس سجلماسة وأول حكامها بأبي يزيد الأسود مرة ، وعيسى بن الأسود مرة أخرى ، والصحيح هوعيسى بن يزيد ، وأن الأسود ليس الا اضافة ، كما ورد في بعض الأخبار .
(٩٧) يسميه : البكرى عيسى بن مزيد ، المسالك ، ص ١٤٩ .
(٩٨) المسالك ، ص ١٤٩ .
(٩٩) تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ .
(١٠٠) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
(١٠١) مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠١ .
(١٠٢) المسالك ، ص ١٤٩ .
(١٠٣) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ .
(١٠٤) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، الاعلام ، ص ص ١٤٠ ـ ١ ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ص ٢٦٧ ـ ٨ .
(١٠٥) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٦ .
(١٠٦) انظر الصفحات التالية .
(١٠٧) التعريف ، ورقة ٢ .
(١٠٨) ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ١٣٩ ، ابن خلدون ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(١٠٩) مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠١ ، ويقول الحميرى في (كتابه الروض المعطار ص ص ٣٠٥ ـ ٢٦ بهذا الرأى أيضاً .
(١١٠) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(١١١) المسالك ، ص ١٤٩ ، اليان ، ج ١ ، ص ١٥٦ .
(١١٢) هو ابو عبد الله عكرمة بن عبد الله المغربي ، كان مولى لعبد الله بن عباس ، واحد فقهاء مكة وتابعيها . اتهم بأنـه كان يرى رأى الخوارج ، توفي حوالي سنة ١٥٠ هـ عن ثمانين سنة . كان عالما بالتفسير والمغـازى روى عنـه ما يقـرب من ٣٠٠ رجل ، ويقال خرج إلى المغرب فأخذ عنه رأى الصفرية من الخوارج ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ؟ مصر ، ١٣١٠ هـ) ج ١ ، ص ص ٣١٩ ـ ٢٠ ، أبوزكريا يحيى بن أبي بكـر ، كتاب الأئمة وأخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربي (المكتبة الوطنية ، الجزائر ، ١٩٧٩) ص ص ٢٥ ـ ٦ ، الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق ابراهيم طلاى (قسطنطينة الجزائر) ج ١ ، ص ١١٠ .
(١١٣) انفرد ابن عذارى في عدم ذكر لقاء عكرمة بأحد حكام سجلماسة الصفرية (البيان ، ج ١ ، ١٥٦) .
(١١٤) الاعلام ، ص ١٣٨ .
(١١٥) مفاخر البربر ، ص ٤٨ .
(١١٦) المسالك ، ص ١٤٩ .
(١١٧) مؤلف مجهول ، ص ٢٠١ .
(١١٨) تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ . ويقول ابن خلدون انه تبنى رواية عريب بن حميد في تأريخه ، في موضوع سمكو .

(١١٩) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٨ ، ١٦٠ .
(١٢٠) الاعلام ، ص ١٣٩ .
(١٢١) مؤلف مجهول ، مفاخر ، ص ٤٨ .
(١٢٢) المسالك ، ص ١٤٩ .
(١٢٣) البيان ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(١٢٤) الاستبصار ، ص ٢٠١ .
(١٢٥) التعريف ، ورقة ٢ .
(١٢٦) المصدر نفسه .
(١٢٧) الاعلام ، ص ص ١٣٨ ـ ٩ .
(١٢٨) أعطت بعض الروايات لحكام صفريين آخرين الصفات التي كان عليها عيسى من امتلاكه للمال والقوة وتنقله المستمر بماشيته من مكان إلى آخر حتى الوصول إلى سجلماسة ، ومن بين هؤلاء الحكام أبي القاسم أو والده سمقو أو مدرار . أنظر البكرى ، ص ١٤٩ ، الاستبصار ، ص ٢٠١ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، ج د ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(١٢٩) التعريف ، ورقة ٢ .
(١٣٠) الاعلام ، ص ١٣٨ ـ ٩ .
(١٣١) المصدر نفسه ، التعريف ، ورقة ٢ .
(١٣٢) التعريف ، ورقة ٢ .
(١٣٣) تأريخ ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ .
(١٣٤) الاعلام ، ص ١٣٨ ـ ٩ .
(١٣٥) التعريف ، ورقة ٢ .
(١١٣٦) المصدر نفسه .
(١٣٧) ابن الخطيب ، ص ١٣٩ .
(١٣٨) انظر البكرى ، ص ١٤٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندي ، ج ٥ ص ص ١٥٨ ـ ١٦٠ ، سجل بعد هؤلاء الكتاب جزءاً من انجازات عيى باسم حكام صفريين آخرين .
(١٣٩) إن تقدير أبي محلي لفترة حكم عيسى بخمسين عاماً لا يمكن أن يكون صحيحاً ، فقد اتفقت المصادر عل يأن عزله كان سنة ١٦٧ هـ .
(١٤٠) انظر البكرى ، ص ١٤١ ، ابن الخطيب ، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندي ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .
(١٤١) الاعلام ، ص ص ١٣٩ ـ ٤٠ .
(١٤٢) المسالك ، ص ١٤٩ .

مصادر البحث

١ - المخطوطـــات :

الدبهي ، علي بن عيسى ، كتـاب عجـائب البلدان والجبال والاحجار ، مخطوط الدراسات العليا ، جامعة بغداد ، كلية الاداب ، رقم ١٤ .

السجلماسي ، أحمد بن محلي . التعريف بمدينة سجلماسة ، مخطوط الخزان الملكية في الرباط تحت رقم ٢٦٣٩ .

٢ - المصادر العربية :

ابن أبي زرع ، أبوالحسن علي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، (دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٢) .

ابن حوقل ، أبو القاسم ، صورة الأرض ، (منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩) .

ابن الخطيب ، لسان الدين ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، وهو القسم الثالث في كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني (دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤) .

ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، تحقيق أحمد مختار العبادي (مطبعة الاسكندرية ، ١٩٥٨) .

ابن الخطيب ومحمد ابراهيم الكتاني ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ترجمة محمد كمال شبانة (نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي ، المغرب ، ١٩٧٧) .

ابن خلدون ، عبد الرحمن ، تاريخ ابن خلدون (دار الكتاب اللبناني ، د . ت) .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان (مصر ، ١٣١٠ هـ) .

ابن سعيد المغربي ، الجغرافية ، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت ، ١٩٧٠) .

ابن بطوطة ، محمـد بن عبـد الله اللواتي ، رحلة بن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩) .

ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج . س كولان وليفي بروفنسال (دار الثقافة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠) .

ابـو زكـريـا يحيى بن أبي بكر ، كتاب الائمة وأخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربي (المكتبة الوطنية ، الجزائر ، ١٩٧٩) .

ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل ، تقويم للبلدان ، تحقيق الين رون ماك كوكين ديسلان (باريس ، ١٨٤٠) .

الادريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد ، المغرب العربي في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، تحقيق محمد حاج صادق (باريس ، ١٠٩٨٣) .

الجنحـاني ، الحبيب ، المغـرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨) .

البكـري ، أبو عبيد اة بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، وهو جزء فيكتاب المسالك والممالك (الجزائر ، ١٠٨٥٧) .

حجي ، محمد ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (منشورات دار المغرب ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨) .

حجي ، محمد ، الزاوية اللائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (المطبعة الوطنية ، الرباط ، ١٩٦٤) .

الحمدي ، ياقوت ، منجم البلدان (دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥) .

الدرجيني ، الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد ، طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق ابراهيم طلاي (قسطنطسنة ، الجزائر د . ت .

الزهري ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق (بلا) .

الاصطخري ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسين ، (القاهرة ، ١٩٦١) .

كول ، ماك ، الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة ، تغريف محمد الحمداوي (الدار البيضاء ، ١٣٩٥ هـ) .

ليون الأفريقي ، الحسن بن محمد الوزان ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر (الرباط ، ١٩٨٢) .

القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق نبيل خالد الخطيب (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧) .

المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة ، ١٩٦٣) .

مصطفى شاكر ، المدن في الاسلام حتى العصر العثماني (مطبعة ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٨) .

المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ، ط ٢ ، ١٩٠٩) .

مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الامصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد (دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥) .

مؤلف مجهول ، نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخب في كتاب : مفاخر البربر ، تحقيق ليفي بروفنسال (المطبعة الجديدة ، الرباط ، ١٩٣٤) .

الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصا لاخبار المغرب ، تحقيق جعفر النادي ومحمد الناصري (دار الكتب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥) .

النويري ، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب ، نهاية الادب في فنون الادب ، تحقيق حسين نصار (القاهرة ، ١٩٨٣) .

اليعقوبي ، أحمد بن واضح ، البلدان (ليدن ، بريل ، ١٨٩٢) .

١ – كانت سجلماسة محطة للتجارة مع بلاد السودان « منها يسافرون الأركاب إلى بلاد السودان للتجارة » (٦٥) .